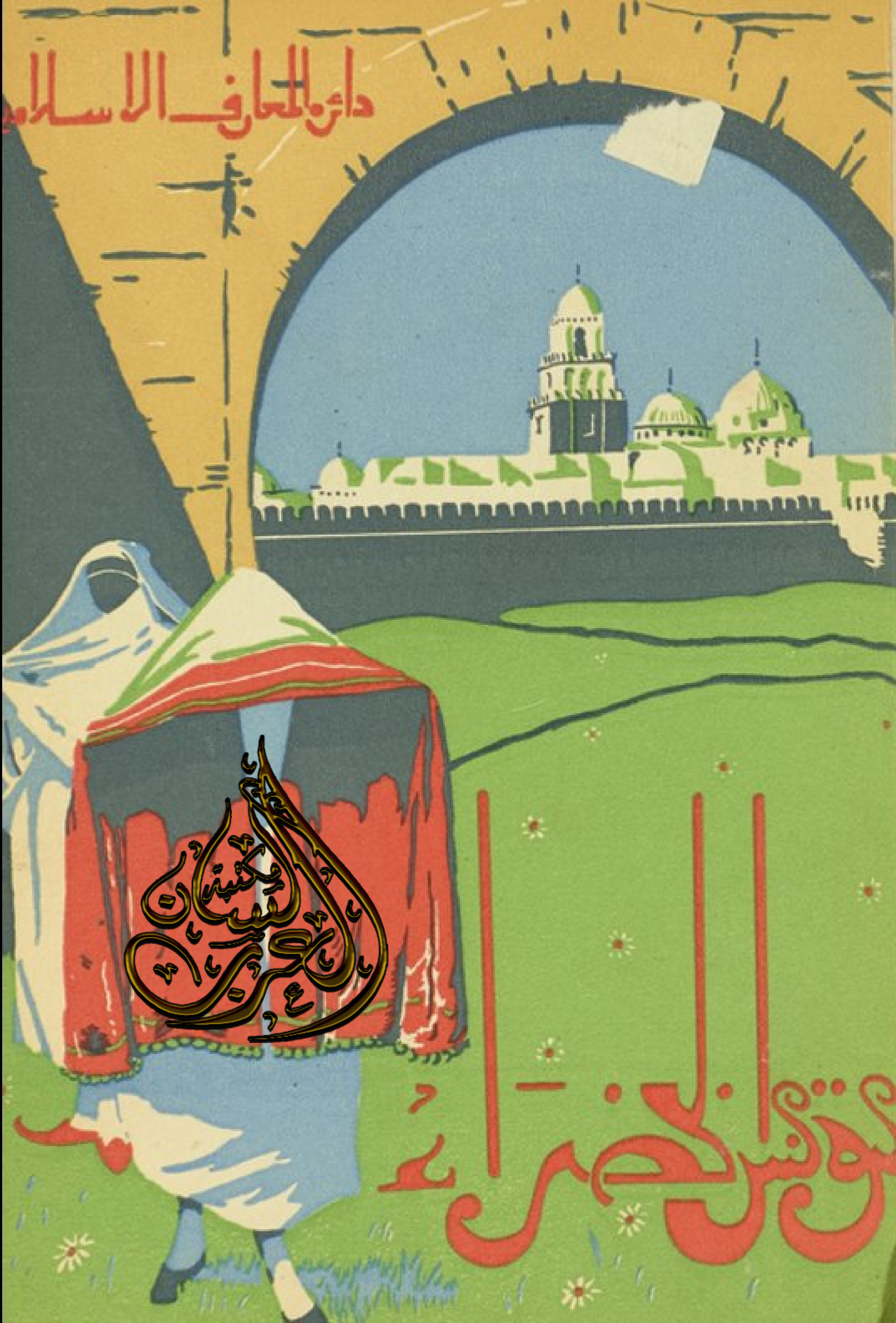


دائرة المعارف الاسلامي
تونس الخضراء

لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

تونس الخضراء

ملتزم طبعه ونشره
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

مقدمة

شغلت تونس أذهان العالم من عهد قريب . وقد أحست اللجنة رغبة الناس فى استطلاع أخبارها والإلمام بتاريخها فرأت أن تنشر عنها هذا الكتاب المبسط . وهو مستق من مواد من دائرة المعارف الإسلامية كتبها طائفة من أعلام المستشرقين الفرنسيين . وقد حذفنا منها المصادر ليكون الكتاب أقرب إلى التناول . وتفضل العالم الجليل أستاذنا شفيق بك غربال فتحدث عن طرف من تاريخها الحديث ودرس بعض مشكلاتها السياسية .

وإنا لنرجو أن نوفق إلى نشر كتب أخرى عن سائر أقطار العالم الإسلامى .

لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية

القاهرة فى ٢٦ رمضان سنة ١٣٦٢

تمهيد

تونس المعاصرة

لا يستطيع الباحث فى تاريخ تونس المعاصرة الاستغناء عن النظر فى أصول وعوامل قد تبدو بعيدة كل البعد عما يجرى الآن فى ذلك القطر الإسلامى الخاضع منذ سنة ١٨٨١ لحكم دولة أوربية حديثة . فالواقع أن الإسلام الذى انتشر فى تونس وفى غيرها من أقطار الشرق القديم حلّ فى قطر قديم له وضع جغرافى خاص قد شكله الفينيقيون ثم الرومان تشكيلا خاصاً — أصبح القطر إسلامياً ، ولكن القوى الكامنة أو الظاهرة والاتجاهات المستترة أو البارزة استمرت بعد الفتح الإسلامى فعالة قوية التأثير — ولا يسعنا فى هذا التمهيد الموجز أن نتولى شرح شىء من ذلك ، إنما يكفى أن نحيل القارىء على دراسات الأستاذ جوتييه (E. F. Gautier) وبخاصة على كتابه القيم : "Les Siècles obscurs du Maghreb") (Paris, 1927 فى هذا الموضوع .

متى بدأت تونس تتخذ طريقها نحو وضعها المعاصر ؟ أو بعبارة أخرى ، متى بدأت العوامل الفعالة فى تشكيلها بشكلها المألوف لنا ؟ نرى أن ذلك كان فى القرن العاشر الهجرى عند ما امتد نفوذ الدولة العثمانية إلى ذلك

القطر . وقد ترتب على ذلك من أول الأمر اتخاذ الأقطار المغربية قاصيها ودانيها التقسيم الجغرافى السياسى المعروف ، كما ترتب عليه اندماج القطر التونسى فى العالم العثمانى بكل ما فى هذا من نتائج خطيرة .

وقد تعرضت الأمم العربية والأوربية التى دخلت فى نطاق العالم العثمانى لأحداث أكسبتها لوناً من الوحدة التاريخية ، كما أن القوة العثمانية حالت بلاشك دون اتصال تلك الأمم بالحضارة الأوربية الناهضة ، وإن كان الباحث المنصف لا يستطيع أن يسلم بأن الأوربيين فى القرن السادس عشر وما تلاه من الأزمنة كانوا على استعداد لأن يقدموا للمسلمين وللمسيحيين من رعايا السلطان العثمانى ثمرات نهوضهم العلمى هدية خالصة ، والمنصف لا يجهل أن تقدم الحضارة الأوربية كان فى أغلب الأحايين اسماً مرادفاً لما كانت تقوم به الأسرات المالكة فى أوربا من الحروب فى سبيل المجد ، يشد أزر الملوك — ولكن فى سبيل المجد الأعلى — رجال الدين ، وفى سبيل الاستغلال رجال المال . إلا أن ما يؤخذ على الملك العثمانى بحق أنه لم يقم على فكرة سياسية أو اجتماعية جديدة ، ولم يفتح لرعاياه العديدين المختلفين باباً لتنظيم علاقاتهم المختلفة على غير ماعرفوا من المبادىء فضاعت عليهم بذلك الإفادة مما كان للعالم العثمانى من موقع فريد فى نوعه ، ومن ميزة اشتماله على أمم لها مالها من نصيب كبير فى تقدم الإنسانية .

وقد أكسب العهد العثمانى تونس — كما أكسب مصر — عنصراً حاكما جديداً فى بابه ، لا يقوم على عصبية قبلية أو دينية ، ولا يدعو لأية

فكرة عامة من أى نوع كان ، بل ليس له من هم إلا الاستيلاء على أزمة الحكم مستعيناً بأعوان على شاكلته ، والمتصفح لتاريخ الدايات والبايات والأغوات والأسطوات والرؤساء العثمانيين فيما بين القرنين العاشر والثالث عشر الهجريين لا يمكنه إلا إقرار ما ذهبنا إليه ، حقيقة كان من هؤلاء الصالح والطالح ، الخير والشرير ، ولكنهم جميعاً ينطوون طى نوع واحد من أنواع السلطان .

وثم اختلاف بين هذين العهدين المضطربين من تاريخ تونس ومصر. فنى الأولى — فى تونس — كان بين العنصر الحاكم فيها وأوربا حرب مستمرة ، أما فى الثانية — فى مصر — فلم يحدث إلا ما كان بين الحكام والتجار الأوربيين من سوء العلاقة .

ومما ينبغى أن يعترف به لذلك العنصر العثمانى الحاكم ما توافرت فيه من صفات قوة القلب والرياسة والاضطلاع بمهام الأمور ، وهى صفات ملكته رقاب الرعية الكادحة . وجعلت منه الأداة الأولى لتطور تونسى جديد ، وذلك أن الكتخدا حسين بن على تقلد أمر تونس فى سنة ١١١٧ ﻫ ، وتمكن من جعل البايوية وراثية فى بيته — البيت الحسينى — واستمرت فيه إلى يومنا هذا . وقد تقدمت تونس ، مصر — فى هذا ، فقد تولى محمد على باشوية مصر فى ١٢٢٠ ﻫ وأسس بذلك البيت المحمدى العلوى — .

وقد نجح البيتان الحسينى والعلوى نجاحا تاماً فى تقويض النظام الذى

أبنتهما ، وحطما العصبيات المسلحة وغير المسلحة التى ترعرعت فى ظل السيادة العثمانية ، وأقاما سلطانهما على شبه نظام قومى . فمهدا بذلك لنمو قومية تونسية وقومية مصرية بالمعنى الحديث للقومية .

والمتتبع لتاريخ تونس فى ظل البيت الحسينى يلحظ مروره بالأدوار الآتية — وهى بصفة عمومية شبيهة بالأدوار التى مر فيها التاريخ المصرى فى القرن التاسع عشر :

أحس أمراء تونس إحساساً قوياً بضرورة إنشاء قوة حربية مجهزة تجهيزاً حديثاً ، تحلّ محل العصبيات المسلحة التى يخشونها ، وتمكنهم من بسط حكمهم على سائر أجزاء المملكة ، وتصون حدودهم . فبدأوا بهذا وفعلوا ما فعله سليم الثالث ومحمود فى الدولة العثمانية ومحمد على فى مصر .

ثم وجدوا أن هذا يستلزم تنظيما جديداً لشتى المرافق والادارات ، كما أنه يستلزم تنمية الموارد الاقتصادية لزيادة الجباية . ويقضى بإعداد جديد للناشئين .

وقد انبعث من هذه الحركة كل ما واجهته تونس وما تواجهه من مسائل ومشكلات .

من هذه المشكلات ما يرتبط بالعلاقات بين البيت الحاكم والمحكومين ، فقد زاد شعور المحكومين بتضامنهم القومى ، وبوجوب نيل ما يكفل منع سوء الحكم ، ويقى كرامتهم القومية اعتداء الغير ، ويضع بلادهم الموضع اللائق بها فى مختلف الحركات التى هزت العالم الإسلامى هزات متواصلة ،

فأدى هذا إلى اكتساب الأمة حقوقا وضمانات مختلفة ، أعمها وأهمها ما اشتمل عليه عهد الأمان الصادر فى ١٢٧٤ (١٨٥٧) . يذكرنا هذا بعهود محمد على باشا وسعيد باشا والخديوى اسماعيل المتضمنة حقوقاً وضمانات مختلفة للرعية والمنتهية بقيام المجالس النيابية فى عهد اسماعيل وأوائل عهد توفيق . وفى تونس — كما فى مصر — لم تُتَح لأهل البلاد حكاماً ومحكومين فرصةُ العمل على وضع العلاقة بين الأمة والحكومة على قواعد ثابتة يرتضيها الجميع ، بل عَقَد الأمر فى القطرين التدخل الأجنبى .

ومن هذه المشكلات ما يتعلق بعلاقة الأمراء بالدولة العثمانية ، فقد أدرك الأمراء إدراكا تاماً ما فى بقاء ارتباطهم بالدولة العثمانية من منافع ، ففى هذا الارتباط شىء من القوة والاطمئنان يقيان بلادهم اكتساح الدول الغربية استقلالهم ، كما أنهم شعروا بما يكنه الشعب من تعلق ببيت الخلافة الإسلامية واعتزاز ببقاء الدولة العثمانية دولة قوية مصونة الجانب ، وبذلك نفهم لِمَ وضع أمراء تونس مواردهم الحربية والمالية المتواضعة تحت تصرف السلطان فى بعض حروبه ، ولكنهم كانوا فى نفس الوقت يخشون ما تكنه الدولة العثمانية نحو تونس وغيرها من الأقطار المتمتعة بقدر من الاستقلال الداخلى من نيات ، ويحذرون عواقب الغلو فى تأكيد التبعية العثمانية ، مما كان يحملهم من وقت لآخر على مجاراة بعض الدول الغربية عندما كانت تشجعهم على الظهور بمظهر الملوك المستقلين ، باستقبالهم فى بلادها استقبالات ملوكية ، والدخول معهم فى مشارطات ومعاقدات تمس جوانب هامة من

سلطانهم ، ولا يمكن لوم الأمراء على قبول ذلك . فان سياسة الدولة العثمانية جرت فى القرن التاسع عشر على وتيرة حملت الأمراء التونسيين على قبول أى تعضيد أوربى يحول دون تنفيذ الدولة ما تكنه من تقويض استقلال تونس . وما قامت به الدولة العثمانية من عزل الخديوى إسماعيل لما فقد التأييد الأوربى وما قامت به لإفساد الحركة العرابية شاهدان على ما جرت عليه فى تونس ، وقد وقعت الخسارة على الجميع — ما عدا الدول الأوربية .

ومن المشكلات أيضاً مايتصل بالعلاقات بالأجانب وبالدول الأوربية : فقد فتح الأمراء الباب واسعاً للأجانب ، واستعجلوا النهوض واليسر ، فاستقدموا الفنيين الأوربيين يرسمون لهم الخطط ويعاونونهم على تنفيذها ، ومكّنوا للعقول الأوربية والأموال الأوربية من استخراج خيرات البر والبحر ، ويسروا لكل طالب رزق من جزائر البحر الأبيض المتوسط وسواحله أن يتخذ من تونس وطناً ثانياً ، يتوق لو أن ضمه لوطنه الأصلى ملحقاً .

قويت الجاليات الأجنبية ، وأصبح للامتيازات الأجنبية من المعانى غير ما كان لها ، ومن وراء الجاليات القناصل ، ومن وراء القناصل الجيوش والأساطيل ، وأضحت مواردالأهلين ومواردالحكومة نهباًمباحاً لكل طامع .

أما الأموال الأوربية فقد استخدمت فيما هو قائم على أسس اقتصادية سليمة ، وفيما هو وهمى ، وفيما هو غير ذاهب إلا لاستكمال أدوات الترف

والتقليد الكاذب . والدول الأوربية فى مواقفها لحماية تلك الأموال وأصحابها لم تميز بين الحلال فتؤيده والحرام فتستنكره ، ولم تتحر عن وجه الحق ووجه الباطل ، بل الكل لديها مصلحة قومية تؤيدها بكل ما تستطيع من قوة . وليت الأمر كان عند ذلك الحد ، فإن التنافس بين الدول كان عاملا قوياً فى تورط الامارة التونسية فى الكثير من المشروعات الفاسدة ، فمثلا إذا نال ماليون من أمة ما امتيازاً بمد سكة حديدية فلا بد أن ينال ماليو أمة أخرى امتيازاً يماثله ، وقد لا تكون له ضرورة . وهكذا ، والمصرى لا يسعه إلاَّ أن يذكر فى هذا ماليي مصر سعيد واسماعيل .

والخلاصة أن الأمراء وضعوا أنفسهم و بلادهم فى شراك لم يستطيعوا منها خلاصاً ، وكلما امتد بهم الزمن ضاقت العيون وازدادوا خبالاً .

وقد وجد الأمراء فى تنافس الدول الأوربية الكبرى أملاً فى تجنب ضياع استقلال بلادهم ، والواقع أنه كان شراً عليهم ، إذ كان مدعاة لمحاولة إرضاء الكل — وفى هذا من تبديد الموارد والحقوق ما فيه ، كما كان صارفاً بكل جهود الحكومة التونسية نحو استقراء طوالع الجو السياسى الأوربى علَّها تهتدى لطريق يقيها الزلل ، كما كان مفسداً لبطانة الأمير ، يميل رجل منها لدولة أوربية ما فيصبح رجلها فى تونس وينحاز آخر لدولة أخرى فيصبح عدواً لمواطنه ، وهكذا ، وقناصل الدول كل منهم يؤيد مشايعه التونسى ، كما يحاول أن يجتذب إلى صفه رجال الحكم التونسيين أو كل ذى حظوة لدى الأمير ، وقد اتخذت هذه المحاولات ألوانا شتى من

الترغيب والترهيب ، مما أفسد الضمائر والذمم .

لهذه الأسباب كلها لم تُصب المحاولات الدولية لحل مسائل الديْن ونظيراتها من المسائل نصيبا من النجاح ، كما كان الحال فى مصر ، وكيف تنجح وقد تحولت اللجان الدولية لتسوية الديون ومراقبة المالية التونسية ميداناً جديداً اشتد فيه النزاع بين ممثلى الدول، بل إن من ممثلى الدول من عمل على فشل الفكرة الدولية ليثبت اثباتا لا يدع محلاً لشك أن الإدارة الوطنية قد عجزت عجزاً تاماً عن إصلاح المختل من أحوالها ، وأن علاج تلك الأحوال بخلق هيئات دولية قد أتى بعكس المقصود منه فأدى إلى تفاقم العلة ، والحل الوحيد المجدى إذن هو أن تتولّى الأمرَ كله دولةٌ أوربية .

من تكون تلك الدولة ؟ وكيف يمكن أن تتخلى لها الدول الأخرى ؟ أذلك مستطاع دون عوضٍ ما فى مكان آخر غير تونس ؟ وأين ذلك المكان أو تلك الأمكنة ؟

معنى هذا أنه كان لا بد لتحول الرقابة الأوربية فى تونس إلى رقابة دولة واحدة من ظروف أوربية أدت إلى مواجهة مشكلات مستقبل العالم العثمانى كله ، إلى وضع المسئلة الشرقية — كما كانوا يقولون إذ ذاك — على بساط البحث عندئذ ، وعندئذ فقط — تتحتم مواجهة الحقائق ، وتبرز القوة أداةً للتنفيذ ، فيخضع لها من ليس مستعداً لمواجهتها بقوة تساويها .

وقد خلقت الثورات فى البلقان ضد الحكم العثمانى والحرب بين

الروسيا والدولة العثمانية (١٨٧٧ — ١٨٧٨) هذا الموقف الذى وصفنا ، وفى هذا الموقف وُلِدت حماية فرنسا لتونس ، كما وُلِد أيضاً الاحتلال البريطانى لمصر ، وقد بدأ بتلك الحماية الفرنسية فعل العامل الأخير فى تشكيل تونس المعاصرة ، ويجدر بنا وقد نشرت الحكومات الأوربية بعد الحرب العالمية الماضية الكثير من وثائقها السرية السياسية أن نعرض بشىء من التفصيل كيف نالت فرنسا ما كانت تصبو إليه من السيطرة على تونس ، وما ترتب على ذلك من عواقب لتلك البلاد وأهلها .

*
* *

كيف أدى التطور الذى شرحنا معالمه إلى وقوع تونس تحت السلطان الفرنسى وحده ؟ لبيان هذه النهاية لا بد لنا من البحث عن أسبابها فى العلاقات الأوربية التالية لهزيمة فرنسا فى سنة ١٨٧٠ ، وفى تأثر تلك العلاقات بالأزمة الشرقية المترتبة على هزيمة الدولة العثمانية فى حربها مع الروسيا سنة ١٨٧٧ .

لقد بدأت حوادث سنة ١٨٧٠ عهداً جديداً فى التاريخ الأوربى الحديث ، فقد أثرت هزيمة فرنسا الكاملة وإتمام خلق الإمبراطورية الألمانية واقتطاع إقليمى الالزاس واللورين من جسم فرنسا الحى فى العلاقات الأوربية حتى يومنا هذا . ويشاء موقف الدول الأوربية فى العالم أن كل ما يجرى فى أوربا يتردد صداه فى أراضٍ وبين أقوام « لا ناقة لهم فيها ولا جمل » .

كان همّ ألمانيا الجديدة بعد ١٨٧١ وشغلها الشاغل أن تمنع فرنسا من نقض ما تم فى تلك السنة ، واتجهت خطط عاهلها العظيم — بسمارك — نحو عزل فرنسا عزلة سياسية فلا تجد حليفاً أوربياً قوياً يشد أزرها فى حرب ضد ألمانيا . وقد فضّل بسمارك أن تقع فرنسا تماماً تحت سلطان أحزاب اليسار الجمهورية اعتقاداً منه بأن أمل تلك الأحزاب فى نيل تأييد سياسى أوربى أقل من أمل أحزاب اليمين وأن انتصار الأحزاب الجمهورية الفرنسية يضعف من شأن الكاثوليكية فى ألمانيا ، وكانت إذ ذاك فى حرب شعواء ضد بسمارك .

ولم يكن بسمارك بالسياسى الذى يكتفى بالإجراء السلبى ، أو الذى يعتقد بإمكان قمع أمة كالأمة الفرنسية إلى الأبد ، بل هناك ما يثبت أنه أدهشته سرعة نهوض فرنسا من كبوتها فى السنوات التالية لسنة ١٨٧١ وأنه اعتقد أنه ينبغى أن يضع نصب أعين زعمائها أهدافاً يجدون فى تحقيقها منصرفاً للهمم القومية وغسلاً لعار الهزيمة الكبرى واستعادة لمركزهم القديم بين الأمم وإبعاداً لهم عن فكرة « الانتقام » المتملكة العقول — لذلك كله عرض بسمارك على فرنسا فى أكثر من مرة بسط سلطانها على تونس . ولم يكتف بهذا بل أدرك أن إرضاء المطامع الأوربية فى أنحاء البلقان والشرقين الأدنى والأوسط ما يكفل صيانة ما تم فى أوربا نفسها ويحول دون قيام محالفات أوربية لقلب الحالة القائمة ، فلم يكره امتداد النفوذ الروسى فى الدولة العثمانية على شرط أن تنال الأمبراطورية النمسوية المجرية

ما يرضيها فى البوسنة والهرسك ، وعلى شرط قبول الحكومة الإنجليزية أن توطد أقدامها فى مصر وغيرها من المناطق الشرقية التى تهمها بالذات .

ولم تصب السياسة البسماركية فى السنوات الواقعـــة فيما بين ١٨٧٠ — ١٨٧٧ إلا قدراً محدوداً من النجاح . فلم تبد بوادر تدل على أن تسوية ١٨٧١ قد أصبحت نهائية بالمعنى الصحيح . أو أن فرنسا أو إيطاليا أو الروسيا أو النمسا والمجر أو انجلترة مستعدة للتسليم تسليما خالصاً بالوضع البسماركى للأشياء .

ولكن عنـدما تشتعل الثورات فى بعض ولايات الدولة العثمانية فى البلقان ، وتأخذ الدولة العثمانية الثائرين وغير الثائرين بما درجت عليه من ضروب الشدة الوحشية ، وتغزو الدولة الروسية أراضى السلطان فى أوربا وآسيا، عندذلك وجدت الدول الأوربية ألآبد من مواجهة حقائق الأشياء. وتلمست كل منهافى الشهور السابقة لصلح سان استفانو كما فى الشهور التالية حلا يصون مصالحها الخاصة ويكون فى نفس الوقت أساساً لتسوية شرقية عامة — أما فرنسا فأمامها مشكلتها الكبرى، أمامها إلا طمأنينة حقيقية إلا إذا وجدت لنفسها حليفاً قويا، وما لم يتيسر لها ذلك فلا بد من تجنب الأزمات والابتعاد عن مواطن الزلل ، فابتعدت بقدر الاستطاعة عن الأحاديث والمفاوضات المتعلقة بالمسئلة الشرقية ، وترددت فى قبول الدعوة لمؤتمر أوربى يستعرض صلح سان استيفانو ويحيل هذا الصلح من اتفاق روسى عثمانى إلى تسوية ترضاها أوربا . ثم اشترطت لقبولها ألا يبحث المؤتمر إلا

ما اتصل مباشرة وطبيعيا بالحرب بين الروسيا والدولة العثمانية . وفسرت هذا بألاَّ يعرض على المؤتمر أى شأن من شئون غربى أوربا أو من شئون مصر وسورية والبقاع المقدسة [رسالة من وزير خارجية فرنسا لسفرائها فى برلين ولندن وروما الخ بتاريخ ٧ مارس ١٨٧٨ — الوثيقة رقم ٢٦٢ من المجلد الأول من الوثائق السياسية الفرنسية] ، ولما ضمن لها هذا قبلت الدعوة لمؤتمر برلين .

وأما الحكومة البريطانية ، فيمكن القول بأن حوادث السنوات ١٨٧٦ و ١٨٧٧ و ١٨٧٨ قد هدمت فيها خطة المحافظة على الدولة العثمانية وأحلت محلها خططاً أخرى متناقضة ، إحداها خطة الأحرار (وهم فى المعارضة) القاضية بأن يكون رائد الحكومة الرائد الإنسانى المسيحى . أى تحرير الشعوب العثمانية المسيحية المغلوبة على أمرها ، وخطة ثانية : هى خطة رئيس الوزارة (اللورد بيكونز فيلد) وهى تتكون من عناصر شتى : من السياسة التقليدية البريطانية ومن القيام بمغامرات حربية وسياسية من أشباه ما كان الشاب الطموح بنيامين دزرائيلى يتلهى به فى قصصه ، ولم يصل دزرائيلى للحكم إلا بعد أن أصبح شيخاً حطمته السنون والأمراض ، وفى الخطة البيكونز فيلدية ما اجتذب إليه بالذات الملكة والعامة وكل من شبوا على كره الروسيا من المحافظين . وخطة ثالثة . وهى خطة وسطى ، خطة التسليم بالواقع ، بأن إنقاذ الدولة العثمانية كما هى حلم قد زال ، بأن تحرير الشعوب المسيحية هدف طيب

حقيقة جدير بالاحترام ، ولكن الأجدر منه بالاحترام ألا يكون التحرير سبباً فى إثارة حروب و إسالة دماء ، وأن المغامرات الحربية والسياسية قد لا يحترمها السياسى الإنجليزى فى قرارة نفسه ، ولكنه لايسعه إغفالها تماماً . فالواجب يقضى إذن بخطة عملية تساير الظروف محاولة الوصول إلى حل سلمى يرضى الجميع . ويمكن القول بأن هذه هى خطة سالسبورى وزير الهند أولا ثم وزير الخارجية ثانياً فى وزارة بيكونسفيلد .

وقد عملت الحكومة البريطانية ما تستطيع أثناء سير الحرب بين الروسيا والدولة العثمانية لإثبات وجهة نظرها ولتشجيع الدولة العثمانية على إطالة مدة المقاومة ، مما حمل معارضى الحكومة على اتهامها بأنها ترمى لإعلان الحرب على الروسيا . كما حاولت تأليف ما سمته « حلف البحر الأبيض المتوسط » من انجلتره وفرنسا و إيطاليا واليونان والنمسا لصيانة مصالح دول الحلف التجارية والسياسية فى ذلك البحر واتخاذ ما يلزم لمنع مسها بأذى ، ولم يؤد هذا إلى نتيجة ما ، فقد خشيت فرنسا و إيطاليا مغبة التورط فى عمل إجماعى كهذا ، أما النمسا فمجال سياستها أوسع من ذلك البحر وتفاهمها مع الروسيا وألمانيا حقيقة واقعة ، واليونان وحدهم لايؤلف منهم أحلاف — والمفاوضات الخاصة بهذا الحلف جديرة بالعناية ، فقد جعلت الحكومة البريطانية لاتؤمن بالسياسة الايطالية بصفة خاصة وسيكون لهذا أثره فيما بعد فى استيلاء فرنسا على تونس .

بعد هذه المحاولة عادت الحكومة البريطانية إلى العمل الانفرادى ، فعبر

الأسطول البريطانى فى ١٤ فبراير ١٨٧٨ مضيق الدردنيل على الرغم من احتجاج الحكومة العثمانية — واستقال وزير الخارجية اللورد دربى كارهاً ما يمكن أن يؤدى إلى حرب مع الروسيا وتولى سالسبورى وظيفته. وفى ٣ مارس ١٨٧٨ وقعت الدولة العثمانية صلح سان استفانو وكانت شروطه معروفة .

وقد أخذت الحكومة البريطانية تعمل من جانبها لصيانة مصالحها فى الظروف الجديدة التى كشف عنها انهيار الدولة العثمانية .

لقد كشف ذلك الانهيار عن استحالة إقامة الحكومة العثمانية على ساقيها ، فلابد لها من أن تتكىء على سند ، [من خطاب من سالسبورى لبيكونسفيلد بتاريخ ٢١ مارس ١٨٧٨ الوثيقة رقم ١٤٢ من كتاب أسس السياسة البريطانية] . أما فيما يتعلق بممتلكاتها فى أوربا فهذه — إن قريبا وإن بعيداً — مقدر عليها الزوال ، والمسألة هى أنه ينبغى للسلطان لأجل الاحتفاظ بممتلكاته فى آسيا من حليف . هذه الممتلكات شأنها غير شأن ممتلكاته فى أوربا ، فليسوا أمماً تسعى للاستقلال وما إليه ، فمعظمهم مسلمون والحكم العثمانى أصلح ما يمكن لمسلمين الحصول عليه (إذا استثنينا الحكم البريطانى) ، فينبغى إذن أن نعاون الدولة العثمانية على الدفاع عن تلك الأراضى فى آسيا وحسن إدارة شئونها . ولا نستطيع أن نفعل ذلك إلا إذا استولينا على قواعد أقرب لتركية آسيا من مالطة [من كتاب من سالسبورى لسفير انجلتره بالقسطنطينية بتاريخ

٩ مايو ١٨٧٨ — الوثيقة رقم ١٤٥ من كتاب أسس السياسة البريطانية] .

تفسر هذه الآراء الاتفاق الذى عقد بتاريخ ٤ يونيه ١٨٧٨ الذى تسلمت الحكومة البريطانية بموجبه جزيرة قبرص ، كما تفسر أيضاً اتفاق الحكومتين البريطانية والنمساوية بتاريخ ٦ يونيه ١٨٧٨ على توحيد غاياتهما فى المؤتمر نظير السماح للحكومة النمساوية باحتلال إقليمى البوسنه والهرسك .

بعد هذه التمهيدات وغيرها اجتمع المؤتمر فى برلين وتولى رياسته بسمارك . أعلن فى أثنائه الاتفاق الخاص بقبرص وثارت ثائرة الوفد الفرنسى — وكان لابد من إرضائه للوصول بسفينة المؤتمر لبر السلامة . وعمل بسمارك من جانبه على إصلاح ما بين الانجليز والفرنسيين ، فكان عرض تونس على فرنسا . وتم هذا العرض واضحاً ، قال سالبورى لوادنجتن رئيس الوفد الفرنسى ببرلين ووزير الخارجية « افعلوا بتونس ما تريدون . إنكم ستضطرون لامتلاكها ، لا يمكنكم ترك قرطاجنة للبرابرة » وكرر ذلك اللورد بيكونسفيلد ، وأكده نفس ولى العهد البريطانى فى باريس [راجع فى ذلك — على سبيل المثال — الوثيقة رقم ٣٣٠ من المجلد الأول فى مجموعة الوثائق الفرنسية : رسالة من وادنجتون لداركور سفير فرنسا فى لندن بتاريخ ٢١ يوليه سنة ١٨٧٨]

وقد شرعت وزارة ديفور (وهى الوزارة التى قبلت هذا العرض) تستعد فعلا لتنفيذه بالتمهيد له فى تونس نفسها . ولكنها عدلت عنه . ولم يتم تحقيقه

كما نعرف إلا فى أثناء سنة ١٨٨١ وعلى يد وزارة جول فرى (Jules Ferry) بانية الامبراطورية الفرنسية الاستعمارية الجديدة .

أكان ذلك لعدول الحكومة البريطانية عما وعدت به فى ١٨٧٨ ؟ حقيقة أن موقف حكومة المحافظين ثم حكومة الأحرار من وعود سنة ١٨٧٨ كان له شىء من التأثير فى تردد الحكومات الفرنسية المتعاقبة ، إن ذلك الموقف لم يبلغ حد الانكار أو النكوص ولكنه اتخذ شيئاً من تضييق التأويل ، فقد قرر اللورد سالسبورى أنه حقيقة يذكر أنه قال الألفاظ التى أسندها له وادنجتون ولكنه يذكر أنه لم يدر فى خلده أنها تؤدى معنى عرض تونس على فرنسا ، إذ كيف يستطيع منح ما ليس يملكه ، وأضاف إلى ذلك أن الوعود الانجليزية لا تفيد أكثر من إطلاق يد فرنسا فى تونس بلا معارضة انجليزية أى أن انجلترا نزلت عن كل ما تدعيه لنفسها فى تونس ولكنها لا تذهب إلى حد إرغام الغير (وتقصد بذلك إيطاليا) على النزول عن ادعاءاتها

بعث ذلك الموقف إيطاليا على اتخاذ موقف عداء صريح من فرنسا فى تونس ، ووجدت فرنسا ألا بد من القيام بعمل حاسم فى تونس قبل أن تسبقها إيطاليا إليه وحمسها بسمارك على اتخاذ هذه الخطوة .

ولا يفيد ذلك أن الرأى العام فى فرنسا ممثلا فى البرلمان أو فى الصحافة قد مال إذ ذاك إلى صف المشروعات الاستعمارية ، الواقع أن لا . بل إن ذلك الرأى العام لم ير فيها إلا شبه خيانة للقضية القومية الكبرى ، تشتيتاً للجهود ، إلا تسليما نهائياً بتسوية ١٨٧١ . وهل يطلب دليل على صحة هذا

أقوى من كون التشجيع على الإقدام على تلك المشروعات يأتى من بسمارك نفسه ؟

والواقع أنه لا الرأى العام ولا البرلمان قد عدلا عن خطتهما ، والصحيح أن جانباً قوياً من الزعامة الجمهورية قد انحازت إلى الرأى القائل بأنه ينبغى على الجمهورية ألا تبقى إلى الأبد متسربلة بثياب الحداد ، بل عليها أن تنهض وأن ترعى مصالحها وأن تتبوأ مكانها الجدير بها

كان جول فرى من أبناء اللورين ، ولا بد أنه أحس بكارثة ١٨٧١ إحساساً قوياً ، ولكنه كان يرى أيضاً أن ذلك الجيل من الفرنسيين كان عليه واجبات نحو فرنسا وأن فرنسا ينبغى الا تنزل عن مكانها الخليق بها وأن مصلحتها فى بلاد الجزائر وتأمين حدودها ورعاية مصالحها فى تونس تتطلب عملا حاسماً فى تونس و إلا سبقتها إيطاليا إليه . أى أنه كان يرى أنه ينبغى أن يأخذ أكثر ما يستطيع دون نزول أو تخل عن حقوق فرنسا التاريخية ، وقد تحمل فى سبيل فكرته هذه عنتاً شديداً من مواطنيه .

والظاهر أيضاً أن فرى لقى تأييداً فى خطته من الزعيم الجمهورى الكبير جامبتا الذى أخذ فى آخر أيامه يبتعد شيئاً ما من فكرة حرب انتقامية ضد ألمانيا .

وقد حملت هذه العوامل المختلفة «فرى» على أن يخفى جهد الاستطاعة حدود عمله فى تونس ، وأن يضيق دائرة التزامات فرنسا فى تونس .

دخلت الجنود الفرنسية تونس تحت ستار تأمين الحدود وأرغمت الباى

على توقيع معاهدة باردو (مايو ١٨٨١) . وتعطى هذه المعاهدة فرنسا حق احتلال الأرض التونسية و إدارة المسائل الحربية ، ولكنها لا تشير إلى الحماية الفرنسية ، وعلى أثر الاضطراب فى صفاقس ، وقع الباى اتفاقا ثانيا (يونيه ١٨٨٣) نالت به فرنسا حمايتها لتونس والتدخل فى مسائلها الداخلية . وقد تم سنة ١٨٨٤ تكوين أدوات الادارة اللازمة و بدأت تونس عهداً جديداً .

سارت فرنسا فى تونس عل نهج يخالف منهجها فى الجزائر ، ولم ينل الحياة الاسلامية فى تونس ما نالها فى الجزائر من التحطيم المقصود وغير المقصود فتونس فى العهد الفرنسى قطر « محمى » له إطار إدارى تونسى ، على عكس الجزائر فهى « قطعة » من فرنسا ، والجزائر أرض استعمار يستفلحها ألوف من الفلاحين الأور بيين فرنسيين وغير فرنسيين ، أما تونس فهى أرض « استغلال » تعمل فيها « رؤوس الأموال » الكبيرة فرنسية وغير فرنسية وفى تونس ما تثيره السلالة الايطالية المستقرة بها من مشكلات تمس العلاقات بين إيطاليا وفرنسا « ولا تعرف الجزائر » مشكلات من ذلك النوع .

إن الفضل فى وضع قواعد الحكم الفرنسى فى تونس يرجع بصفة خاصة لبول كامبون (Paul Cambon) المقيم العام فيما بين ١٨٨٢ و ١٨٨٦ . ويمكننا أن نحلل فى الوضع التالى الثنائية الفرنسية التونسية إلى ما انتهت إليه :

العنصر التونسى — العنصر الفرنسى

البــاى — المقيم العام

ثلاثة وزراء — ٤ وزارات و ٥ إدارات عامة

المجلس الكبير

(ويتكون أحد قسميه من ٤٤ فرنسياً والآخر من ١٨ تونسياً)

(وله حق الموافقة على بعض فصول الميزانية)

٥ مجالس اقليمية

(ويتكون أحد قسمى كل مجلس من ١١ فرنسياً والآخر من ١٠ تونسيين)

وهى مجالس استشارية

مجـالس القيادات

(وهى انتخابية استشارية وتتكون من تونسيين فقط)

يدل هذا على اتجاه الخطة الفرنسية نحو جعل اشتراك الفرنسيين وأهل البلاد وسيلة لرعاية وتنمية المصالح المشتركة وبخاصة فى الدائرة الاقتصادية، وهو تنظيم يهمل جانب الاعتبارات القومية كما أنه يعطل نمو الحيـاة السياسية . والظاهر أن أهل البلاد يحسون إحساساً شديداً بأن ذلك التنظيم لا يرضى أمانيهم فنظموا حركات شبيهة بالحركات الحديثـة فى

بعض الأقطار الإسلامية الأخرى لتحقيق برامج سياسية قومية تسودها المعانى والنظريات الغربية ، ولا نزال بعد — فى مصر كما فى تونس وفى غيرهما — نرقب فجر حركات أعمق وأدوم . فجر ابتعاث « حياة إسلامية » تامة . وهذا الفجر لما تلح بعد تباشيره .

شفيق غربال

« المراجـــــع »

ا — مجموعات الوثائق : —

1. Ministère des Affairs Etrangères. Documents diplomatiques françaises. Première Serie. Tomes. premier, second, trois.

وقد نشرت فى سنتى ١٩٣٠ و ١٩٣١ وتتعلق بالسنوات من ١٨٧١ إلى ١٨٨١ الترجمة الفرنسية لمجموعة الوثائق السياسية الألمانية تحت العنوان الآتى :

2. "La politique exetérieure de l'Allemagne," tomes 1, 2, 3,

وتتعلق بحوادث السنوات من ١٨٧٠ إلى ١٨٨٢ وقدنشرت فى سنتى١٩٢٧و ١٩٢٨

3. Temperley & Penson : Foundations of British foreign Policy Cambridge, 1938.

وهى مختارات جيدة توضح قواعد السياسة الخارجية البريطانية .

ب — دراسات : —

الدكتور محمد مصطفى صفوت :

1. "Tunis and the Powers"

رسالة لم تنشر بعد ، مستندة على المصادر الأصلية ، فى موضوع العلاقات بين تونس والدول العظمى .

2. Stephen. H. Roberts :
History of French Colonial policy

فى مجلدين ، ١٩٢٩ بحث علمى نزيه فى تاريخ الاستعمار الفرنسى من ١٨٧٠ إلى ١٩٢٥ لايستغنى عنه المتتبع لتاريخ الأمم الاسلامية الواقعة تحت السلطان الفرنسى .

3. James Headlam — Morley :

وكان المؤلف فى وقت ما مستشاراً لوزارة الخارجية البريطانية فى المسائل التاريخية

Studies in diplomatic history.

نشر فى سنة ١٩٣٠ وهذه مجموعة من تسع دراسات مهمة ، واحدة منها تؤرخ العلاقات المصرية الأنجليزية وأخرى تشرح وضع انجلترا يدها على جزيرة قبرص فى سنة ١٨٧٨ .

4. R.W. Seton-Watson : "Disraeli, Gladstone and the Eastern Question". London 1935.

باريس ١٩١٧

5. J. L. de Lanessan : "La Tunisie."

جغرافية تونس

مساحة تونس بحدودها الحالية بين خطى طول ٨° و١١° شرقاً وخطى عرض ٣٢°، ٣٧° شمالا : ١٨٠و١٢٥ كيلومتراً مربعاً ، وتتاخمها من الغرب الجزائر ومن الجنوب الصحراء ؛ ومن أقصى الجنوب الشرقى ليبيا الإيطالية أى طرابلس ، وتضرب مياه البحر الأبيض المتوسط سواحلها فى الشمال والشرق وأغلب هذه الشواطىء أراض منخفضة . ومناخها على الجملة دفىء معتدل ، ولكن سقوط الأمطار يختلف كثرة وقلة من ناحية إلى أخرى بل من سنة إلى سنة ، وللقرب من البحر أو من الصحراء شأن فيه ، ولذلك يختلف كثيراً باختلاف خطوط العرض واختلافاً أكثر بارتفاع الأرض . وتضاريسها جد متباينة ومتوسط ارتفاعها فوق سطح البحر ليس كبيراً . وتمتد جبالها من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى ، وهى بقية جبال الجزائر . وفى الشمال الغربى لتونس جبال من الطباشير والحجر الرملى ، وقلما يزيد ارتفاعها تجاه الجزائر على ثلاثة آلاف قدم . ويهطل على هذه الجبال مطر غزير ، ويغطيها البلوط والحسك ، وفيها مناجم الزنك والحديد ، وهى تساير الساحل حيث نصادف ثغر طبرقة الصغير ، ثم كثبان نفزة ورأس العبد وشبه جزيرة رأس سرات الصغيرة ؛

ويقل ارتفاع هذه الجبال فى الشرق شيئاً فشيئاً إلى أن تبلغ التلال التى تكتنف سهل بنزرت وماطر ، وكلاهما وافر الماء يثمر ثمراً طيباً من الحنطة ؛ وبحيرة بنزرت ويصلها بالبحر مجاز ضيق ، فرضة حسنة ماؤها بعيد الغور تجاه صقلية ، وهى على مقربة منها . ويشرف على سهل ماطر جبل عجيب يعرف بجبل أشكل ، وقد أوشك هذا السهل أن يغطى بالغرين ، ولم يعد به من البطائح إلا القليل . وأبعد من هذا ناحية الشرق رأس سيدى على المكى فوق غار الملح ، وهو يتاخم خليج تونس من الشمال ، ويملأ هذا الخليج الرسوب الذى يحطه نهرا مَجِرْدَة ومليان . ذلك أن أوتيكا ، وكانت من ثغور الرومان ، تبعد الآن عن البحر ستة أميال . أما شبه جزيرة قرطاجنة ، وكانت من قبل جزيرة ، فيصلها بأرض تونس برزخ يفصل سبخة الرينة من بحيرة تونس . ويصل حلق الوادى البحر بهذه البحيرة — وفى طرفها مدينة تونس . ولا يغزر المطر فى ناحية تونس ، ولذلك تجود فيها الكروم والفواكه ولا تجود الحبوب .

ويخترق نهر مَجِردة شمالى تونس من الغرب إلى الشرق وهو النهر الوحيد فى تونس الحقيق بهذا الاسم ، ويقل ماؤه كثيراً فى الصيف ، ويفيض ويكدر من نوفمبر إلى أبريل . وتفصل (حلوق تستور) مجراه الأسفل (مجاز الباب وطبربة) من مجراه الأوسط حيث يروى غوردخلة (ناحيتى سوق الأربعاء وسوق الخميس) وهو غنى بالحبوب والمراعى شأنه فى ذلك شأن تلال بجاية الطباشيرية المجاورة له ، وتكتنف وادى

نهر مجردة من الشمال تلال تبرسق ، وهى من الحجر الجيرى ، و إلى جنوب الوادى معارج تونس الوسطى ، والغربية ، وهى تلال مدورة من الحجر الجيرى ، ثم سهول عظيمة وهكذا ، وهذه المعارج امتداد جبال الأطلس فى الجزائر. ويغطى هذا التل المرتفع غابات من صنوبر حلب وشجيرات نامية ومراع عظيمة ، ولذلك تطيب فيه الحنطة . أما ناحيته الجنوبية الغربية فأكثر جفافاً من نواحيه الأخرى ولا يطيب فيها إلا الشعير . وهذه الناحية بالذات وبخاصة تجاه حدود الجزائر أغنى نواحى تونس بالمناجم . وتصب أنهار تونس فى خليج تونس وهى فروع مَجِرْدة ونهر مليان .

وتقوم إلى الجنوب من التل المرتفع أبرز الحدود الجبلية ، وتمتد هذه الجبال التى هى بمثابة العمود الفقرى لتونس من جوار تبسة إلى جبل زَغْوان وجبل الرصاص و بوقرنين . على أن هذه الجبال لا تعوق الاتصال بالجنوب فهو مُيَسَّر بفضل ممرات أو دروب أشهرها مجاز قصور سبيبة الكبيرة ومسايل المنحدرات الجنوبية مثل وادى مِرْجِلِّلْ وزَرُود والحطب تفيض فى غير مواسم وبغير انتظام فى الأخبات السبخة فى إقليم الفيافى الكبير الذى يمتد من قَفْصَة ، ولا تقطعه إلا تلال قليلة جيرية متوسطة الارتفاع . ويغطى هذه الفيافى فى الغرب الحلفاء أو الشيبة وتغطيها من ناحية الشرق أشجار السَّلَم ثم تنحدر شيئاً فشيئاً حتى أحراج الزيتون على ساحل صفاقس، ومع ذلك ففى هذه الفيافى مزارع شاسعة و بقاع صالحة للرعى ، وليس بها من البلاد ، إذا استثنينا القيروان ، إلا ما يقوم عند رءوس الممرات من

جبال تونس . على أن هذه الفيافى تتغير طبيعتها صوب الجنوب فتصبح كالصحراء لندرة المطر ، وتنتهى وراء قفصة أرض غنيـة برواسب الفوسفات عند غور الشطوط وواحتى الجريد ونفزاوة وهنا تبدأ الصحراء الكبرى .

وشبه جزيرة رأس أدار المشهورة على الساحل الشمالى الشرقى ، حيث أفلحت مزارع مثمرة ، وعلى امتداد جبال تونس ، وهى بين خليجى تونس والحمّامات، وتتصل سهولها التى على الساحل بممرى زغوان وقرنبالية، وإلى الجنوب من أحراج البرتقال فى نابُل والحمّامات وسهل سوسة وفيه وديان ما زال ماؤها وافراً يكفى بزيتونه وغلاته الأخرى السكان الذين تكتظ بهم القرى الكبيرة الحصينة . والساحل مستقيم لا تبرز منه إلا شبه جزيرتين صغيرتين هما المنستير والمهدية .

ويبدأ الساحل عند رأس كبوديا فى مستوى الجور تقريباً ثم ينعطف إلى الداخل فيُخلِّف فى جون صفاقس جزر قرقنة ويفصلها عن الشاطىء بطائح ، ثم يساير خليج قابس وفيه إسفنج كثير . وأحراج النخيل فى قابس عند نهاية الخليج ، وبين هذه الأحراج وبين واحة الحمة المتاخمة للشطوط ممر يصل سهول تونس الوسطى أو الشرقية بسهول الساحل الجنوبى الأقصى ، وهذه السهول هى : سهول أرث ، وبالقرب منها جزيرة جِرْبة الكبيرة المستوية الخضراء ، وسهول جِفَرة التى تتاخمها البحيرات . ومع ذلك فثم أحراج زيتون زاهرة حول جرجيس وبنْ جردان .

تاريخهـــا

قدم غزاة العرب براً من الجنوب الغربى ففتحوا ما يعرف الآن بالساحل التونسى ، وقد اقتضاهم هذا الفتح قتالا شاقاً مع سكانه من البربر وعمال الروم دام حوالى نصف قرن . وكتب على المسلمين فى شمالى إفريقية أن يصطدموا بالروم كما اصطدموا بهم فى المشرق ، على أن الأحوال فى ولاية إفريقية كانت فى منتصف القرن السابع الميلادى جدّ مواتية للفاتحين الذين غلبوا عليهم ، وقد مزق الخلاف الدينى أوصال الجماعة المسيحية فى قرطاجنة ، وفصل عن بوزنطة المتمسكين بأهداب السنة المسيحية ، وكان سلطان الإمبراطور يخف شيئاً فشيئاً على الولاة فأخذوا ينزعون إلى الاستقلال واضطرهم ذلك إلى طلب العون من شيوخ القبائل ، فأفادت القبائل من هذا الموقف ، وألقت عن كاهلها على الأيام كل أثر لسلطان الروم ، حتى إذا جاء الفتح الاسلامى كان جنوب ولاية إفريقية مستقلا عن قرطاجنة أو يكاد . وغزا العرب هذه البلاد غزوتين بينهما ثمانية عشر عاماً ، على أنهما لم تكونا فتوحا بالمعنى المفهوم ، وإنما كانتا غارات مهدت الطريق لحملات أخرى أحسن نظاماً وأكمل عدة تم بها فتح البلاد . ومن المصادفات العجيبة أن المغيرين ألفَوْا إفريقية البوزنطية فى الغزوتين على

أبواب محنة سياسية : ففى عام ٦٤٧ م كان البطريق جريجوريوس قد انفصل وشيكا عن الإمبراطور واستقر به المقام بين البربر لما دهمه والى مصر عبد الله بن سعد بن أبى سرح عند سُبَيْطلة وقضى عليه ، ثم شرع فى اكتساح بلاد الجريد ، وفى عام ٦٦٥م كان أهل قرطاجنة قد جاهروا الإمبراطورية بالعداء مخالفين فى ذلك ظن الناس جميعاً عند ما ضرب معاوية بن حديج إفريقية وغزا جلولا .

وإنا لنتساءل هل كان حكم المغرب منوطا بوالى مصر عند ما حل عام ٦٦٧ م ؟ الواقع أن الفتح الحقيقى لم يتم إلا بين عامى ٦٦٩ و٧٧٠ م ؛ وقد تميز بانتصار عقبة ابن نافع و بناء مدينة القيروان ، وكان هذا تاريخ استيلاء العرب على إفريقية والتمكين لهم فيها ، وفاتحة دخول قبائل البربر فى الإسلام . على أن أهم هذه الحوادث جميعاً هو تشييد هذه المدينة الجديدة ، وهى حاضرة من حواضر المسلمين ودار للصناعة ومحط للقوافل وسوق للتجارة . وقد رفع أهل هذه المدينة منذ ذلك الوقت قواعد مسجدها ومدوا أرباضها فى السهول المواجهة لنجاد تونس الوسطى التى ظل يحميها خط من حصون الروم .

وعاد عقبة عام ٦٨١ م بعد أن انقضت ولاية أبى المهاجر ، ولا نعرف من أخبار هذا الوالى إلا القليل . وحدث بعد عامين أن كان عقبة راجعاً من غزوة له فسقط فى الزاب أمام تهودة صريع فتنة شديدة قام بها الأهلون فى وجهه . وقد ناصر الروم كُسيلة رأس هذه الفتنة ، وظل هذا

الرجل أعواماً طويلة أميراً على دولة بربرية مترامية الأطراف ، ناهضت غارات العرب الجديدة وقاتلتهم أشد قتال ، وسقط كسيلة نفسه فى حومة الوغى بناحية سبيبة عام ٦٧٨ م . ويقال إن زهير بن قيس البلوى كان قد وفد عليها فى ذلك الحين .

ولم تسمح الأحوال فى داخل الدولة الأموية باستئناف الفتح إلا عام ٦٩٣ م ، وفيه خرج حسان بن النعمان فى جيش عدته أربعون ألف مقاتل لغزو إفريقية ، ثم تقدم مسرعاً صوب الشمال للقضاء على الروم قبل أن يرجع لقتال بربر « أو راس الأشداء » واستولى على قرطاجنة عام ٦٩٥ م ، ولكنه فقدها وهزمه البطريق يوحنا ثم هزمه البربر فى سهول باغاية بقيادة الكاهنة وهى شخصية أسطورية ، فرجع إلى برقه ثم هاجم قرطاجنة فى العام التالى بحراً وبراً ، فاستولى عليها وثبت أقدامه فيها ، وفى عام ٦٩٨ م انتزع العرب من البربر والروم جميع ما يعرف الآن بتونس تقريباً ، واستطاع حسان أن يشيد تونس ، واستولى خلفه موسى بن نصير على زغوان ثم قاد بربر إفريقية لغزو المغرب . .

وتمكن معظم الروم فى إفريقية من الهرب بحراً إلى صقلية ومالطة خاصة ، والظاهر أن غالب السكان الذين بقوا فى البلاد بادروا إلى الدخول فى الإسلام ، اللهم إلا جماعات قليلة من النصارى « الأفاريق » أو اليهود . على أن بربر إفريقية قد نزعوا إلى الاستقلال حتى بعد إسلامهم ، شأنهم فى ذلك شأن بقية أقطار شمالى أفريقية ، وحاولوا فى عدة مناسبات أن

يستعيدوه وتذرعوا فى ذلك بأيسر الأسباب وهو الزندقة ، فكان القرن الثامن كله فتناً ؛ وقد استعين بمذهب الخوارج الاشتراكى لإثارة أهل البلاد على العرب الحاكمين ، كما كان هذا القرن حافلاً بفتن الجند العرب الذين كانوا يسارعون إلى الشغب والخروج على النظام .

وتمكن حنظلة بن صفوان من إخماد فتنة عكاشة الصفرى ، ولكنه أجبر على الفرار إلى الشرق عند ما استولى الثائر عبد الرحمن بن حبيب الفهرى على القيروان . وعجز آخر الأمويين عن استعادة هذه الولاية النائية التى كانت بسبيل الخروج من أيديهم . ورأى العباسيون أن الأندلس بمنجاة من سلطانهم فقصروا همهم على استعادة إفريقية من أبى الخطاب الإباضى ، واسترجع قائدهم محمد بن الأشعث القيروان وعمر أرباضها . وأقام فيها يلى أمورها ، ولكن حكمه لم يدم طويلاً ، فقد نقم جند العرب عليه وأجبروه على الرحيل . وعجز الأغلب بن سالم التميمى عن الثبات للمنتقضين من المضرية ، وقتل فى فتنة عام ٧٦٧ ، فسادت الفوضى خمسة أعوام سويا .

وتوارث حكم إفريقية من عام ٧٧٢ إلى عام ٧٩٤ م بنو المهلب ، وهم دويلة من عمال الخلافة يمانية الأصل ، نجحت بعض النجاح فى إقامة النظام ونشر الأمن فى ربوع البلاد . وتخلص يزيد بن حاتم يعاونه أربعون ألف جندى من أبى حاتم الإباضى ، وعمر مسجد القيروان الجامع عام ٧٧٤م ونظم أهم طوائف المدينة . وقضى ابنه داود على حلف وَفَرْجومة البربرى ، وتمكن أخوه وخلفه روح من الاتفاق مع ابن رستم الاباضى صاحب

تيهرت . وقد قضى هذا الاتفاق على نزعة التمرد بين بر بر إفريقية . ولم يعد يهدد أمن البلاد إلا جند العرب وحدهم ، فقد حل بها ، بعد وفاة الفضل آخر بنى المهلب ، عهد ساده الفتن وسفك الدماء ، فأنفذ الخليفة العباسى إليها القائد هرثمة بن أعين ، فردها إلى طاعته و بنى رباط المنستير . وخلف هرثمة محمد بن مقاتل العكى فأثار جند تونس التميمية بسوء تدبيره وضعف حيلته فعزلوه فى أكتوبر عام ٧٩٩ م . وفى هذا الوقت ظهر إبراهيم ابن الأغلب فجأة وناصر العباسيين فى ولاية الزاب ، وكان ابن عاملها ، وقد قتل عام ٨٦٧ م ، ورد ابن مقاتل إلى القيروان ؛ واستمع هارون الرشيد لناصحيه فجعل إبراهيم « أمير » إفريقية مكافأة له وتوطيداً لأركان الحكم فى البلاد ، وظل السلطان فى بيته أكثر من قرن بلا انقطاع .

وقد أحدثت دولة الأغالبة أثراً بالغاً فى تونس . وكان الأمراء يتبعون الخلافة فى الظاهر ولكنهم كانوا فى الواقع مستقلين عنها يتوارثون الحكم فيما بينهم ، فجنحوا إلى السلم والنظام والتوسع . بيد أن التميمية فى تونس لم تهدأ ثائرتهم ، وكان إبراهيم نفسه تميمياً ، ولكنه اختلف مع هؤلاء الجند من مضر ، وقد برموا بأولى الأمر سواء أقربت ديارهم أم بعدت عن العباسيين ، الذين قربوا اليمانية أعداءهم القدماء . فاضطر إبراهيم إلى الاعتماد على جند بينهم كثير من الأعاجم الوافدين من خراسان ، وكان حرسه حديث النشأة من الزنج يعتصم بحصون القصر القديم أو العباسية التى أقامها على بعد فرسخ من القيروان . وفى عهده أخذت تنتشر الحصون المعروفة بالمحارس على

حدود الساحل الشرقى . ولما توفى عام ٨١٢ م ، عادت الفتنة إلى طرابلس .

واشتهر ابنه زيادة الله بنشاطه وقسوة قلبه ، وسرعة بادرته ، فوجد له منافساً قويا هو منصور الطنبذى الذى أوشك أن يقضى عليه ، وخرجت البلاد الشمالية كلها بما فيها تونس عن طاعته أعواماً ، بيد أن نفحة من نفحات عبقريته هدته إلى ما فى الجند المشاغبين من طمع وحمية فاستنفرهم إلى جهاد صقلية فأقلعوا من سوسة يهزهم الحماس ، تحت إمرة القاضى المشهور أسد بن الفرات . واستولوا على بلرم عام ٨٣١ م ، ثم على مسينا بعد اثنتى عشرة سنة . وقد شيد زيادة الله رباط سوسة عام ٨٢١ م ، واستطاع أن ينصرف إلى أعمال السلم ومنها بناء المسجد الجامع فى القيروان . وتأثره خلفه فتوسع فى إقامة البنى . وشيد عام ٨٥٠ م مسجد سوسة الجامع ومسجد صفاقس ، ونحن نخص بالذكر الأمير أحمد الذى أقام الأسوار حول هاتين المدينتين ، و بنى « صهريج الأغالبة » وهو الصهريج الكبير الذى يزود القيروان بالماء .

وفى عام ٨٧٤ م خلف ابراهيم الثانى ، آخر الأمراء العظام فى هذه الدولة ، أخاه محمداً ، وقد كنى بأبى الغرانق لكلفه باصطيادها ثم هجر القصر القديم إلى قصبة جديدة جُعلت فيها دواوين الحكومة : وهى رقادة التى لا يزال موضعها معروفا على مسيرة خمسة أميال جنوبى القيروان . فلما مات ثارت تونس وفتحت عنوة وتردد الأمير عليها ، ونقل عاصمته إليها لكى يرقب أحوالها بعين ساهرة . وتميزت سياسة الأمير فى الخارج بحوادث

جسام ، فواجهت البلاد أول الأمر من ناحية الجنوب الشرقى غارات العباس بن أحمد ، ابن أول أمراء البيت الطولونى ، ذلك أنه لم يطع أباه وخرج على رأس حملة من مصر وسار إلى طرابلس عام ٨٨٠ م يريد فتح إفريقية . ولكن بربر نفوسة وقفوا بينه وبين طرابلس ، وجاء إبراهيم فى الوقت الملائم واستولى على أموال الطولونيين فساعد ذلك على تحسين الحالة المالية للبلاد ؛ بيد أن ذلك لم يدم طويلا لأن الأموال لم تملأ الخزائن التى استنزفتها الفتن والثروات ثم البذخ والاسراف ، وألحت الحاجة على الحكام فاشتطوا فى طلب العبيد والخيول من سهل جمودة فاندلعت فتنة جائحة ! إلا أن فتح صقلية تم بالاستيلاء على سراقوسة عام ٨٧٨م وتاور مينا عام ٩٠١م ، وشكا أهل تونس من إبراهيم فصدع لأمر الخليفة وتنازل لوالده عبد الله ومات مجاهداً عند كوسنزة من أعمال كلابريا فى أكتوبر من العام نفسه .

وكانت الفتنة الدينية التى اجتاحت إفريقية بعد ذلك فى مهدها بالمغرب ، وكان بربر الجنوب جميعاً من الإباضية ، وتمتد منازلهم من أوراس إلى جربة وطرابلس ، أما بربر نفوسة فكانوا يقطعون الطريق الذاهب إلى الشرق جنوبى قابس ، وذلك قبل أن يعمل إبراهيم الثانى السيف فى رقابهم . بيد أن مذهب الخوارج لم يحل دون غلبة المذهب السنى فى الجزء الأكبر من البلاد وظهور جماعة من مشاهير الرجال . وقد بلغت المناظرات فى مسائل الفقه ذروتها أيام الأغالبة ، وفى ذلك العهد قامت المذاهب المختلفة وجمعت أمهات كتب السنة ، وقد ظهر فى هذه الأثناء اثنان من تلاميذ ابن القاسم

فقيه المالكية المشهور فى مصر ، هما : أسد بن الفرات الذى ولد لأسرة خراسانية وتوفى فى صقلية ٨٢٨ م ، وتلميذه سحنون الذى ولد فى بلاد الشام لأب من مرتزقة الجند وولى عام ٨٥٠ م قضاء القيروان فنصر المذهب المالكى . ولا تزال مدونة ابن الفرات عمدة يرجع إليها ، وظلت المالكية المذهب الغالب فى تونس وإن ظهر عليها أحياناً بعض المذاهب الأخرى . وجدير بنا أن نلاحظ أن أشهر العلماء والمذاهب كان شرقى المنبت ، كما وفد الداعى أبو عبد الله عام ٨٩٤ م من المشرق على قبائل كتامة فى إكجن ليدخلهم فى شيعة عبيد الله المهدى .

وأنفذ الأغالبة عام ٩٠٢ م حملة على كتامة فبلغت غرضها بعد جهد وازداد خطر الشيعة أيام زيادة الله الذى قتل أباه عبد الله المعتزلى ، وفى عام ٩٠٥ أسرع المهدى بالقدوم من الشام إلى شمالى إفريقية وانتظر فى سجلماسة اللحظة المواتية للمجاهرة بدعوته ، وكان داعيته المخلص يفتك بجيش الأمير وأخذت الحوادث تجرى سراعا . وحاول زيادة الله عبثاً أن يحاكم الشيعة أمام مجمع من الفقهاء فى تونس وطلب المعونة من العباسيين ؛ وسقطت باغاية فى ربيع عام ٩٠٧ م ، وفى شهر مارس عام ٩٠٩ فرّ زيادة الله إلى بغداد بعد سقوط الأربس ودخل الداعى رقادة على الرغم من العداوة التى أسرها علماء السنة . وفى شهر ديسمبر من السنة نفسها تلقى المهدى بنفسه فروض الولاء من الأهلين فى القيروان . وهكذا تأسست فى إفريقية بفضل الجند المشاة من بدو كتامة الخلافة الفاطمية العبيدية الشيعية ، فأحدثت انقلاباً

فى الأحوال السياسية فى شمالى إفريقية بأسره قبل رجوعها إلى موطنها القديم فى المشرق .

وكانت الدولة الجديدة تمد بصرها من أول الأمر إلى مصر ولم تنقطع عن إنفاذ الحملات تمهيداً لفتحها حتى وطدت أقدامها فيها . وقد قتل عبيد الله فى يناير من ٩١١ م أبا عبد الله وهو الذى ثبت له الملك ، مثله فى ذلك مثل المنصور الخليفة العباسى الذى قضى على داعيته أبى مسلم . وقد سار ابنه على رأس جيش عام ٩١٣م وفتح الفيوم واستولى ابن آخر على مدينة الأسكندرية فلما توقف الفتح ناحية الشرق فكر المهدى فى تأسيس عاصمة له فى إفريقية على البحر . فابتنى المهدية لتخرج منها الأساطيل لمهاجمة المشرق ، وللتحصن فيها من هجمات البربر من داخل البلاد ، وقد أنفذت عام ٩١٩ م حملة أخرى استولت على الأسكندرية ، واحتفظت بها أمداً وجيزاً ، وكان انتصار هذه الخلافة فى الغرب مبيناً ، فقد قضت على ثورة صقلية وأدخلتها فى طاعتها ولما توفى عبدالله فى مطلع عام ٩٣٤ م كان المغرب بأسره قد دان للفاطميين وقضى على دولة الأباضية فى تيهرت والإدريسية فى فاس وصفرية سجلماسة واعترفوا جميعاً بسلطان الفاطميين[١] .

واستطاع أبو القاسم نزار القائم بأمر الله أن يوطد سلطانه على الدولة المترامية الأطراف التى ورثها . والواقع أن أسطوله تمكن من نهب جنوة عام ٩٣٥ م ، بيد أنه لم يكن لهذه الغارة شأن ، ولم يكن منه إلا أن استسلم للثورة الشديدة التى قاد لواءها النكارى أبو يزيد بن كيداد الإفرانى

صاحب الحمار الذى جهر بأنه « شيخ المؤمنين » وقاد باسم الدين هوارة شرقى أوراس لمهاجمة مدن إفريقية . ونهب البربر الخوارج عام ٩٤٤ م باجة والأربس والقيروان وسوسة ، واستولوا على تونس وحاصروا الخليفة بالمهدية بعد أن زاد عددهم بمن انضم إليهم من بربر نفوسة والزاب . ومات أبو القاسم فى أحرج الأوقات عام ٩٤٦ م . واستطاع ابنه اسماعيل المنصور أن يعيد الأمور إلى نصابها يؤيده أهل البلاد الذين أثارتهم مظالم الغزاة ، وتنصره كتامة التى ظلت موالية له . وهزم أبو يزيد فى وقائع دموية متعاقبة ورأى بعينيه تفرق رجاله ثم سقط فى يد أعدائه مثخناً بالجراح ، فى الموضع الذى شيد فيه ابن حماد قلعته عام ٩٤٧ م .

فلما انتهى هذا العصر المضطرب أعقبه عصر آخر يسوده الأمن والرخاء . وبادر المنصور إلى إظهار سلطانه بتشييد مدينة صبرة الزاهرة التى عرفت بالمنصورية وسرعان ما أخملت جارتها القيروان . وازدهرت التجارة والصناعة وكان القائد رشيق يجوب البحر ملقياً الرعب فى قلوب النصارى . وجاءت اللحظة المنتظرة من زمن طويل عند ما اعتلى المعز عرش الخلافة عام ٩٥٣ م . فقد دان له المغرب بأسره على الرغم من شبوب الفتن بين الحين والحين لمناصرة الأمويين أصحاب قرطبة . وكانت غارات الأندلسيين على سواحل سوسة وطبرقة ثارات قديمة ليست بذات خطر . وقوى الأمل فى فتح مصر وكان قد ضعف بموت كافور الإخشيذى فاحتل جوهر الصقلى مدينة الفسطاط فى يوليه عام ٩٦٩ م باسم الخليفة المعز ، مثله فى ذلك مثل

أبى عبدالله الذى احتل القيروان لمولاه المهدى ، كما احتل أبو عبد الله مدينة دمشق فى العام الذى يليه . وأسس مدينة القاهرة لمولاه ثم دعاه إلى اللحاق به ليقف فى وجه القرامطة . فلما فرغ الخليفة الفاطمى من القضاء على آخر ثورات زناتة ، وكان يتشبه بالمشارقة فى رسوم الملك والخلافة ، تجهز للرحيل فى أغسطس ٩٧٢ م فبلغ القاهرة فى العاشر من يونيه ٩٧٣ م وأصبحت هذه المدينة بذلك قصبة دولته .

وعهد المعز قبل رحيله بحكم إفريقية (ماعدا صقلية) إلى الأمير البربرى بلكين ، وكان أبوه زيرى بن مناد عدواً لدوداً لقبيلة زناتة الثائرة ، وقد أعان العبيديين دائما برجاله من صنهاجة . وقد نجحت هذه الخطة التى رمت إلى حكم البلاد بأمراء من البربر نجاحا كاملا . وكان بنو زيرى يتسلمون كتاب الولاية من القاهرة ، وفى أيامهم عم الرخاء فى إفريقية وكثر الخير والزاد بفضل ارتقاء الزراعة والصناعة والتجارة مع العالم الخارجى . وكانت المحافل الرسمية غاية فى الأبهة والبذخ . ونهضت دراسة الفقه والطب ، وكان قد برز فيها أيام الفاطميين رجال مشاهير كما برز فى الأدب الشاعر ابن رشيق ، واجتذب يهود القيروان نفراً من مشاهير التلموديين كما نبغ منهم كثيرون .

ولم تتأثر هذه الحضارة الزاهرة بفتن زناتة المغرب الذين استفحل أمرهم مع الأيام وجهروا بولائهم لقرطبة كما أنها لم تتأثر بانفصال حماد الذى أسس فى عهد أخيه باديس بن المنصور عام ١٠٠٨ م دولة مستقلة فى قلعته المشهورة .

بل كان الأمر على العكس من ذلك فقد بلغت الدولة أوجها فيما يظهر أيام المعز ابن باديس فى النصف الأول من القرن الحادى عشر ، بيد أن هذا المعز كان كثير الخيلاء ، وقد وقره خلفاء القاهرة و بجله أهل المغرب بأسره ، ولكنه اقترف خطأ عظيما ببعث الفتن الدينية القديمة التى كان يتذرع بها سكان شمالى إفريقية للانتقاض على حكامهم المشارقة . واجتمع حوله مالكية القيروان وتوجه بولائه إلى العباسيين فى بغداد وانتهى به الأمر إلى الجهر بعصيان الفاطميين على مراحل استغرقت العهد إلى عام ١٠٥٠ م .

وكان انتقام الخليفة الذى انتقض عليه انتقاماً شنيعاً ، واستشعر وزير مصر الفاطمى أن الإهانة موجهة إليه فأنفذ إلى الوالى الثائر جماعات من أعراب الهلالية النهابة وكانوا يسكنون الصعيد شرقى نهر النيل . وبلغ بنو رياح أول العرب الهلالية شمال إفريقية عام ١٠٥١ م فأحدثوا انقلاباً فى تاريخ سلطنة تونس ، وأسرع المعز إلى تحصين القيروان فلم يجده ذلك نفعاً وهزم عندها مرتين . وفى عام ١٠٥٧ م دهمه البدو ونهبوا أغوار البلاد جميعاً ، فانتقل سراً إلى المهدية فى حراسة أمراء من العرب اضطر إلى الإصهار إليهم وتزويجهم من بناته . وقد أحدث هؤلاء الغزاة وعدتهم مئات الألوف انقلاباً كبيراً فى شمالى إفريقية من حيث الاقتصاد والسياسة والسلالات . فقد رد البربر واستعربت البلاد وغلبت عليها البداوة واضطرب الأمن فهلك الزرع وتقوض سلطان الحكومة المركزية وسقطت بعض المدن الكبيرة فى يد العرب واستقلت غيرها بأمر نفسها يحكمها أمراء

من أهل البلاد أو عمال جهروا باستقلالهم وكان منهم من قدم فروض الولاء إلى بنى حماد أصحاب القلعة ليحتموا بهم . وهكذا تأسست دويلة بنى خراسان فى تونس ، وبنى الورد فى بنزرت وبنى جامع فى قابس وبنى الرند فى قفصة . أما فى الوسط فقد عمت الفوضى والاضطراب .

واستطاع بنو زيرى على الرغم من كل هذه المصاعب أن يحتفظوا بالمهدية ولم يكن فى أيديهم إلا الساحل الممتد بين سوسة وقابس . وخلف تميم أباه المعز فحاول عبثاً أن يستعيض بعض ما فقده أبوه فاصطلح مع ابن حماد ولم يوفق فى هجومه على تونس وأصبح محصوراً فى المهدية لامناص له من رد هجمات العرب وصد النصارى الذين تجدد عداؤهم له . وقد سقطت المهدية عام ١٠٨٧ م بتحريض البابا فى يد البيزيين والجنويين فاضطر تميم إلى تعويض المنتصرين وإعفاء تجارتهم من المكوس . واعترف يحيى بن تميم وبعده ابنه على بسلطان الخلفاء فى القاهرة وأيدتهما قبائل العرب فأحرزا بعض الانتصار فى البر والبحر حتى دهمهما عدو لم يكن فى الحسبان . ذلك أن النورمان كانوا قد غزوا صقلية ومالطة وشرعوا يتدخلون فى شئون إفريقية . وفى عام ١١١٨ م دبت الفرقة بينهم وبين هذا الأمير الزيرى فاستعان بالمرابطين من أقصى المغرب واضطر الحسن بن على أول الأمر إلى الاتفاق مع روجر صاحب صقلية وقبول حمايته ليقف فى وجه بنى حماد أصحاب بجاية ، بيد أن هذا لم يمنع أمير البحر جورج الصقلى الأنطاكى من إجلائه عن المهدية عام ١١٤٨ م وبسط روجر الثانى ثم وليم

الأول لونا من الحماية السمحة على جربة والمدن الساحلية من سوسة إلى طرابلس وكان غرضهم فى ذلك تجارياً ، ولـكن هذا لم يدم طويلا فقد ثار النصارى وسرعان ما استعادوا حريتهم و بقيت سوسة والمهدية وحدهما فى يد الكفار إلى عام ١١٦٠ م عنـد ما استولى عليهما عبد المؤمن الموحدى الذى جاء من المغرب الأقصى وهزم عرب إفريقية عام ١١٥١ م ، وكانوا قد اتحدوا فى وجهه بزعامة الأمير المعز بن زياد الرياحى ، ثم قضى على كل مقاومة اعترضت سبيله واستولى على الحصون وأعمل السيف فى اليهود والنصارى فأعاد بذلك الوحدة السياسية إلى شمالى إفريقية خمسين عاما أو تزيد .

ولم تذق إفريقية طعم السلام على الرغم من نفوذ خلفاء مراكش أصحاب السلطان الجديد فيها ، ولم يستشعر الناس سلطان الموحدين لأنهم أقاموا من قبلهم عاملاً فى مدينة تونس يختار من أقارب الخليفة الأدنين . وسرعان ما ظهر عجزه عن إعادة النظام إلى الولاية التى كان العرب دائماً يتهددونها إلى جانب ما أحدثته جماعات التركمان من اضطراب بزعامة قراقوش الأرمنى . وشخص يوسف و يعقوب المنصور على رأس الجند فى عامى ١١٨٠م و١١٨٧م بيد أن ذلك لم يكن كافياً ، فقد كان يحيى المرابط حليف قراقوش سعيد الجد، فقد انفصل عن حليفه وغلب خصمه ابن عبد الكريم الرغراغى على أمره واستطاع أن يبسط سلطانه من قاعدته فى الجريد على ولاية تونس بأسرها . واحتاج الأمر أن ينفذ الخليفة الناصر حملة يقضى بها على المرابطين وذلك

بزعزعة سلطان يحيى ، وإقامة حكومة قوية على الولاية عهد بها أول الأمر إلى الشيخ عبد الواحد بن أبى حفص فبلغ الحفصيون بذلك أول مرتبة من مراتب السلطان

وولى أمير آخر من بنى حفص على تونس منذ عام ١١٨٤ م وقد انحدر هذا البيت الحفصى من أمير بربر هنتاتة ، من قبائل مصمودة التى كانت تعيش فى مراكش ، وكان له شأن عظيم بين أتباع المهدى بن تومرت ، وقد مكنوا لأنفسهم فى إفريقية عام ١٢٢٦ م باستعمال أبى محمد عبد الله الذى خلعه بعد ذلك بعامين أخوه أبو زكرياء . واستقل أبو زكرياء بالأمر شيئاً فشيئاً ، ولكنه قنع مع ذلك بالإمارة ، وكان المؤسس الحقيقى للدولة التونسية العظيمة التى حكمت ثلاثة قرون ونصف قرن على الرغم من الأحداث التى تقلبت عليها . وقد استمسك الحفصية دائماً بسنة الموحدين ، وكان نظام الدولتين فى الحكم متشابهاً إذا استثنينا بعض الفروق الصغيرة ، بيد أنه لما نادت مكة بثانى أمرائهم المستقلين ، (ابن أبى زكرياء) ظلت تحيط به بطانة قوية من الموحدين كانوا دعامة الدولة والجيش وكانت دواوين الحكومة تندرج فى ثلاثة أقسام كبيرة : الجيش وبيت المال والقضاء . وكان عمال الولايات يختارون عادة من أقارب الخليفة الأدنين . بيد أن من الخطأ أن ننكر ما كان لكثير من الأندلسيين من شأن فى إدارة البلاد وحياتها العقلية بعد أن أجلاهم النصارى عن الأندلس فى القرن الثالث عشر الميلادى .

ولما رغب بنو حفص فى نشر ألوية السلام على إفريقية كانت تواجههم

دائماً خلافات الأعراب فيما بينهم ، وما أثاروه من فتن وقلاقل فأضعف ذلك من سلطان الحكومة المركزية إبان القرن الرابع عشر الميلادى .

وكان لهذه الدولة عهود زاهرة حتى وفاة الخليفة المستنصر عام ١٢٧٧ م . ذلك أنهم بسطوا سلطانهم على الرغم من الثورات التى كانت تنشب بين حين وحين من طرابلس إلى صميم بلاد الجزائر . ومكنوا لأنفسهم فى المدن الهامة . وامتد نفوذهم إلى ما وراء شمالى إفريقية فلفت أنظار أسبانيا وأوربة المسيحية . وفى هذا العهد توطدت العلاقات التجارية المنظمة مع برشلونة ومرسيليا وجنوه و بيزا وصقلية والبندقية : فعقدت معاهدات تنظم التجارة والملاحة وأنشئت فى تونس قنصلية وزادت جباية المكوس فدفعت تونس الجزية إلى صقلية ثم إلى أرغونة .

وصفوة القول أن الحكم فى إفريقية كان أوطد وأزهر مما كان عليه فى القرنين السابقين ، وآية ذلك نهضة علوم الفقه وفن العمارة . وقد تعاقبت على البلاد فتن آثارها نزوع بعض الأمراء إلى العرش ممن تربطهم بالخليفة قرابة صحيحة أو مزعومة .

ومما يبعث على الأسف أن هذه الفتن أضعفت سلطان الخليفة وأوهنت الروابط القائمة بين رعاياه . وولى الحكم من أعقاب المستنصر أمير واحد هو أبو عصيده وبوفاته خرج الحكم من هذا الفرع . فحكم أخ ثالث هو أبو حفص ثم ابن عم له هو أبو يحيى بن اللحيانى . وقد استقر السلطان آخر الأمر فى أعقاب ابن آخر من أبناء أبى زكريا هو أبو إسحاق إبراهيم .

وانفصمت أواصر الوحدة بين بنى حفص زماناً بخروج بجاية عن طاعتهم وقيام دولة مستقلة فيها ثم عادوا إلى ما كانوا عليه من اتحاد . وكانت جربة قد بقيت فى يد النصارى مذ فتحها روجر صاحب لورية فأخذها الحفصيون منهم ووقفوا فى وجه بنى عبد الواد بفضل تحالفهم مع المرينيين الذين قويت شوكتهم . بيد أن هذا الحلف كان ينطوى على خطر دفين ، فقد استغل أبو الحسن السلطان المرينى الواسع الأطماع الفتن الداخلية وبادر إلى فتح إفريقية ، واستقر هو وفقهاؤه ورجال بلاطه فى مدينة تونس . ولم يكن ليعيد بنى حفص إلى السلطان غير فتنة عربية موفقة . وقد حدثت هذه الفتنة عام ١٢٥٠ م بيد أن جيوش أبى عنان المرينى استطاعت بعد سبع سنين أن تحتل تونس مرة أخرى ، ولم تثبت أقدامهم فيها طويلا .

وفى هذا العهد ، أيام أبى إسحاق ابراهيم ظهر سلطان الحاجب الدساس ابن تافراگين ، ولكنه لم يوفق تمام التوفيق فيما بذل من جهد لإعادة وحدة هذه الدولة فقد خرج جنوبها خاصة عن طاعة الخليفة وظهرت دويلات مستقلة فى تلك الربوع فحكم بنو يملول فى توزر وبنو الخلف نفطة وبنو مكى فى قابس وبنو ثابت فى طرابلس ؛ إلا أن أبا العباس (١٣٧٠ م ـ ١٣٩٤ م) الذى بدأ حياته السياسية فى قسنطينة أعاد إلى الدولة مجدها ، فكان ينفذ الحملات الواحدة بعد الأخرى حتى دان له الثوار بالطاعة ، وفى عهده أرادت جماعة من الصليبيين الجنويين الفرنجة

أن تثأر من القرصان الذين جاوز طغيانهم الحد ففشلت أمام المهدية ١٣٩٠م .

ونهض ابنه أبو فارس بالأسطول وأنفذ حملة بحرية على مالطة ١٤٢٨م ؛ وكان لزاما عليه من الناحية الأخرى أن يرد عادية القطلونيين والصقليين ، وأنفذ حملة كبيرة على جربة ، وأقام الحصون فى رأس أدار ورفوف والحمامات لرد غائلتهم ثم استولى على تلمسان .

وكان عهد الحفصيين فى القرن الخامس عشر يتميز بزيادة نفوذ الموالى الذين كانوا يستعملون على الأقاليم والجيش ويعرفون بالقواد . وقد كان الأمير أبو عمرو عثمان آخر السلاطين المبرزين . وارتبطت تونس بعلاقات ودية مع أوربة على الرغم من نشاط قرصانها . وأذن للقطلونيين والجنويين بصيد المرجان فى طبرقه ، وسمك التون فى رأس أدار . أما فى الداخل فقد اتسع سلطان مذهب المرابطين الذى جاء من الغرب وارتقت الزراعة على الرغم من شغب الأعراب . وسرعان ماساءت الأحوال بموت عثمان فحكم البلاد ثلاثة من الخلفاء فى غضون أعوام قليلة ثم أخذ نجم الدولة يأفل أيام أبى عبد الله فمزق أوصالها انتقاض القبائل عليها قبل أن تحيق بها ضربات الأسبان الذين طاردوا قراصنة الترك فى هذه الربوع .

وفى عام ١٥١٠ م جردها پدروناڤارو من بجاية وطرابلس ، وفى عام ١٥٢٠ م احتل هيوزده منكاد جربة إلى حين ثم طرد خير الدين بربروسه آخر الأمر الحسن بن أبى عبد الله من تونس .

ولم يعد الحسن إليها إلا عند ما استولى شارل الخامس على المدينة ،

وأصبح قيلا من أقيالها ، وسلم للأسبان حصن حلق الوادى . وساءت الأحوال فى تونس عندما استولى أندريا دوريا على مدن سفاقس وسوسة والمنستير ثم حلت بالأسبان حوادث خطيرة وخارت عزيمة جند الحسن فذهب يطلب العون من أوربة ولكن ابنه أحمد حميدة انتهز فرصة غيابه وخلعه .

وحاول حميدة ، وكان رجلاً غليظ القلب مقداماً ، أن يستعيد ملك آبائه فلم يفلح . ثم ظهر بطل جديد هو القرصان التركى درغوث ، وكان فى يد الجنويين ، ولم يطلقوا سراحه إلا فى مقابل تسليمهم جزيرة طبرقه ، وطرده الأسبان من المهدية عام ١٥٥٠ م إلا أنه استطاع بمهارة أن يفلت من أندريا دوريا فى إبريل من العام نفسه بين ممرات جربة واستطاع من قاعدته فى طرابلس أن يحتل قفصة والقيروان وفيها ترك فرقة من الجند تحت إمرة حيدر باشا . ولما قاد دوق مدينة سالم حملة على جربة هزمه درغوث هزيمة منكرة ثم هلك فى حصار مالطة عام ١٥٦٥ م

واستمرت الحرب بين حميدة وعامل الأسبان على حلق الوادى على الرغم مما عقد بينهما من المعاهدات ، فسهل ذلك على أمير الجزائر على باشا احتلال تونس فوضع فيها حامية من الجند ثم استعاد دون جون النمسوى مدينة تونس من الترك فأعاد سلطان الحفصيين لآخر مرة بتأثير محمد بن الحسن وتعيين سربلونى مشيراً له . واستولت جنود الترك التى جاء بها اسطول سنان باشا من القسطنطينية على تونس وحلق الوادى فوضعوا بذلك

حداً لحكم الأسبان وكان مزعزعاً لا يطول به العهد ، وقضى على دولة بنى حفص « الوطنية » التى كانت عزيزة الجانب وأصبحت على مر الأيام لا حول لها ولا قوة ، وكانت عودة حميدة إلى الملك بمثابة صحوة الموت لهذه الدولة ، فقد بسط سلطانه على فيافى تونس والجريد أعواماً .

أما سنان باشا فقد جعل تونس ولاية تركية ملحقة بالجزائر يحكمها باشا وذلك قبل أن يعود إلى القسطنطينية ، ثم أصبحت منذ عام ١٥٨٧م تابعة للباب العالى مباشرة . وكان يقود جيش الاحتلال أغا ، ويتألف هذا الجيش من أربعة آلاف رجل على رأس كل مائة داعى (داى) . واستبد الديوان بالأمر وهو الهيئة الحاكمة التى تضم الضباط العظام . فاندلعت نيران الثورة وانتهت بوضع أزمة الأمور فى يد واحد من هؤلاء الدعاة (الدايات) . وأصبح منصب الباشا فى عهد هؤلاء الدعاة منصب شرف فحسب ، وإن كان يمثل السلطان ، أما الديوان فقد أعيد تنظيمه وقويت شوكته ، مثله فى ذلك مثل طائفة الرعايا أى (طائفة القرصان) . أما من ناحية الدين فقد كانت الصدارة للمذهب الحنفى .

ويعود الفضل فى تنظيم الولاية للداعى الثالث عثمان فقد أصدر مجموعة من القوانين موسومة بـ « الميزان » واستطاع أن يحافظ على الأمن فى البلاد يعاونه « باى » مهمته جمع الضرائب بقوة الجند فى دورتين كل سنة . وأشرفت الدولة على القرصنة فى البحار وشاركت فى غنائمها . ولما طُرد المسلمون من الأندلس عام ١٦٠٩ م استقروا فى كثير من بلاد تونس مثل

رأس أدار وطبورية ومجاز الباب وتستور وقلعة الأندلس فروجوا سوق الخضر ونشطت بعض الصناعات كالصباغة وصناعة الجوارب .

وضعف سلطان تركيا على تونس إلى حد أن فرنسا أصبحت تتمتع بفضل الامتيازات العثمانية بمكانة رفيعة فى أرجاء الدولة العلية بأسرها ، فأنشأت قنصلية لها فى تونس ١٥٧٧ م واقتضى الأمر أن أرسلت عام ١٦٠٦ م سفيراً هو ده بريف لكى يتصل مباشرة بأولى الأمر فى تونس .

واستعاد يوسف زوج ابنة عثمان وخليفته مدينة جربه من باشا طرابلس . واتفق فى عهده على تسوية الحدود بين تونس و بين الجزائر نتيجة لغارات الجزائر عليها ، ثم خلفه داع اسمه الأسطى مراد (١٦٣٧ م — ١٦٤٠ م) وكان قرصاناً جنويا دخل فى الاسلام ، فحصن غار الملح وأسكن فيه جماعة من أهل الأندلس . ولكن سلطان الدعاة (الدايات) كان آخذاً فى الضعف . ولسنا فى حاجة إلى ذكر الدعاة الأربعة والعشرين (خوجه ولاز وغيرهما) الذين حكموا من عام ١٦٤٠ م إلى عام ١٧٠٢ م لهوان شأنهم ولأنهم أصبحوا ألعوبة فى يد البايات الذين نجحوا آخر الأمر فى القضاء عليهم ،

وحكم الباى مراد من عام ١٦١٢ إلى عام ١٦٣١ م وكان قورسيقيا يلقب بالباشا ، وقد تنازل فى حياته لابنه محمد فأصبح بدوره باشا واعتمد فى حكمه على كتيبة من الصبائحية وزعها بين تونس والقيروان والكاف و باجة وأصبح سيد البلاد دون منازع .

وقد أسس حمودة الدولة المرادية ، فحكم ابناه مراد ومحمد الحفصى وأحفاده

محمد وعلى ورمضان ، فكانت الفتن تهدد سلطانهم . وبلغت هذه الفتن غايتها بمقتل ابن حفيده مراد عام ١٧٠٢ م .

وامتاز النصف الأول من القرن السابع عشر بعودة العلاقات التجارية بين تونس وأوربة ، وبخاصة بينها وبين مرسيليا وليفرنو ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى تجار النصارى واليهود . واتجرت فى المرجان الشركات المرسيلية المؤسسة فى رأس الأسود وبنزرت جنوبى طبرقة ، وكانت تربح من تصدير الجلود والحبوب . واتسعت علاقات الولاية بالخارج فشملت أمماً مثل بريطانيا العظمى والأراضى الواطئة . فكانت وحدات من الأساطيل الأوربية فى النصف الثانى من هذا القرن تضرب الساحل بقنابلها ، إلى جانب الحملات التى درج فرسان مالطة على القيام بها انتقاماً لأعمال القرصنة الماضية .

وازدهرت البلاد فى الداخل أول الأمر كما يستدل من إقامة المنشآت العامة والمساجد فى طول البلاد وعرضها ، ثم ساءت الأحوال على مر الأيام فى عهد المتأخرين من المرادية حتى استطاعت الجزائر أن تقوم بغزواتها .

وأخذت القبائل فى الانتقاض على الحكومة وظلت الكاف فى يد بنى شنوف أمداً طويلا وقلعة سنام فى أيدى الحنانشة وكان جبل وسلات موطن شغب عظيم واجتاح البلاد وباء الطاعون مرات كثيرة فأهلك الناس .

ولما قضى إبراهيم الشريف الذى كثر فى عهده سفك الدماء ، وكانت قد

اجتمعت له لأول مرة ألقاب الباى والداعى والباشا وأغا الجند ، نودى بالحسين بن على تركى باياً على تونس فى العاشر من يوليه ١٧٠٥م فى غضون غزوة جزائرية جديدة ، وهكذا قامت الدولة الحسينية التى لا تزال تحكم البلاد إلى اليوم . وأعاد حسين السلام إلى الربوع وشيد كثيراً من المبانى (مثال ذلك ما أنشأه فى القيروان) ، وحاول أن ينظم ولاية العرش لمصلحة ذريته مباشرة فخلعه على باشا يظاهره الجزائريون ؛ ومن ثم نشأت مصاعب جديدة استفحل أمرها بفتنة يونس بن على عام ١٧٥٢م . ثم اعتلى محمد بن الحسين العرش آخر الأمر بتدخل الجزائر أيضاً . وحكم على باى ثم ابنه حمودة ففعلا الكثير فى سبيل إصلاح ما فسد من شئون الدولة و إعادة الرخاء إلى ربوعها .

ونشطت التجارة الخارجية كما نشطت الزراعة ، واتسعت علاقات الباى مع الدول الأوربية على الرغم من قضائه على الجاليات التجارية برأس الأسود وطبرقة ، وأبرمت معاهدات كثيرة كان يوقعها بنفسه . وعينت فرنسا آخر الأمر قنصلا عاماً لها فى تونس على الرغم من محاربتها إياها عدة مرات . ونشبت الحرب بين تونس والبندقية واستمرت ثمانى سنين (١٧٨٤ — ١٧٩٢م) وأخضع على باى ثوار جبل وسلات ومزق كلمتهم ولكنه عجز عن التخلص من الجزائريين الذين ظلوا مصدر تعب كبير لحمودة ، وأعمل حمودة السيف فى رقاب الانكشارية المتمردين عام ١٨١١ م .

وطرأت تغيرات ملحوظة على أحوال السلطنة التونسية إبان القرن التاسع عشر، أولها القضاء على القرصنة والقرصان، وكانت من أهم موارد الدولة، وقد أرغمت الدول الأوربية محموداً على ذلك نتيجة لمؤتمرى ڤينا و إكس لاشابل ثم كان احتلال الجزائر عام ١٨٣٠ م أيام الباى حسين، فأعقب هذا نتائج لم تكن فى الحسبان. وقد حاولت تونس عبثاً، مدة نصف قرن الملاءمة بينها و بين الأحوال الجديدة بتغيير نظامها الداخلى وانتهاج سياسة وسط بين التراخى فى تبعيتها للدولة العلية والانصراف عن هذه التبعية حيناً آخر و بين السماح للدول المسيحية بالتدخل فى شئونها على يد قناصلها، وشجعت بريطانيا سلطان الباب العالى وناوأته فرنسا ولم يبد هذا السلطان إلا فى القليل من فرامانات التولية وفى إرسال الجند التونسية إلى القريم عام ١٨٥٥م لمحاربة روسيا (وقد اشتركت وحدة بحرية تونسية مع الأسطول التركى فى واقعة نفارينو عام ١٨٢٧م) وأخذ بعد ذلك النفوذ الفرنسى والإنجليزى والإيطالى يزداد على مرّ الأيام.. نعم إن خطط فرنسا لإقامة أمراء تونسيين على الجزائر لم تلق نجاحاً. ولكن تونس لم تعد تأخذ الجزية التى كانت تدفعها الدول المسيحية نظير حق الاتجار معها، وتولى أحمد وكان أشبه بالحاكم المستبد المتنور، فألغى الرق ومنح اليهود حرياتهم ونظم «الجيش التونسى» على النسق الأوربى، واختار له مدربين من الفرنسيين، وزار لويس ڤيليب فى باريس فى عام ١٨٤٦م. بيد أن إسرافه الكثير ونفقات بناء دار الصناعة فى غار الملح وقصور المحمدية استنزف موارد

الدولة وكانت جدّ قليلة ، ففرضت ضرائب جديدة وأصدر قانون لاحتكار أشجار الزيتون .

وأدخل ابن عمه محمد (١٨٥٥ — ١٨٥٩ م) ضريبة على الرؤوس مقدارها ستة وثلاثون قرشاً كما أعفيت منها بعض المدن التونسية الهامة ، ولكن أهم حادث فى عهده هو إصداره عهد الأمان فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٥٧ م حمله عليه القناصل ، وأعلن فيه أن أهل تونس جميعاً سواء أمام القانون وفى دفع الضرائب ، كما أعلن حرية العقيدة وحرية العمل والتجارة وحق الأجانب فى امتلاك الأرض والعقار . وأصدر أخوه محمد الصادق (١٨٥٩ — ١٨٨٢ م) دستوراً فى السادس والعشرين من أبريل عام ١٨٦١ م أقره نابليون الثالث ، وبه ظلت السلطة التنفيذية فى يد الباى تؤول إليه بالوراثة ، وأصبح مسئولاً عن الحكم ، وينتقل العرش إلى أكبر أمراء البيت الحسينى يعاونه وزراء يختارهم بنفسه ، وقسمت السلطة التشريعية بين الباى والمجلس الكبير المؤلف من ستين عضواً معينين . أما السلطة القضائية فكانت مستقلة ، وكانت المحاكم تتبع قانوناً تونسياً جنائياً ومدنياً ، أما إدارة الأقاليم فكانت فى يد (القواد) يعاونهم (شيوخ) منتخبون ، وجعلت للباى مخصصات ، ولم يعد له حق فرض الضرائب وغيرها . ولكن سرعان ما ساء الموقف على الرغم من هذه الإصلاحات ، وقد أدت السياسة المالية الخرقاء التى انتهجها مصطفى باشا خازندار من العودة إلى الاستدانة وزيادة الضرائب ، إلى عصيان القبائل تحت راية

على بن غذاهم عام ١٨٦٤ م كما أدت إلى تأليف لجنة مالية دولية (من التونسيين والفرنسيين والإيطاليين والمالطيين) عام ١٨٦٩ م ، وفى يوليه من عام ١٨٥٩م عطل الدستور ، وفى أكتوبر من عام ١٨٧٣م خلف القائد خير الدين على دست الوزارة الخازندار الذى عزل من منصبه . فامتاز عهده بإصلاحات جليلة ، ولو أن البلاد لم تصب منها إلا تقدماً يسيراً . بيد أن موارد الدولة كانت قليلة جداً وديونها عظيمة حتى أن اللجنة لم توفق إلى شىء . وكانت إدارة مصطفى بن إسماعيل السيئة هى الضربة القاضية التى أصابت البلاد بينما اشتد التنافس بين قنصلى فرنسا و إيطاليا على الصدارة فى الامتيازات الخاصة بالمصالح العامة .

وشجعت بريطانيا وألمانيا منذ مؤتمر برلين عام ١٨٨٧ م التدخل الفرنسى فى شئون تونس . وقد سير الوزير جول فرى ثلاثين ألف مقاتل لغزو تونس نتيجة لغارات أهل جبال خمير على الجزائر وغيرها من الحوادث . و بعد عشرين يوماً أرغم الجنرل بريار صادقاً على أن يوقع معاهدة (قصر سعيد) المعروفة بمعاهدة باردو ، دون أن يسفك دماء أو يأبه لاحتجاج تركيا . وقد أعطيت هذه المعاهدة فرنسا حق الإشراف على الشئون العسكرية والخارجية والمالية للسلطنة التونسية ، وعين وزير مقيم فرنسى يتولى الشئون بين الباى والحكومة الفرنسية ، وكان القنصل روستان بطبيعة الحال أول من شغل هذا المنصب ، وهكذا بدأت الحماية و إن لم تكن قد أعلنت بالفعل . ثم أصبحت الحماية أمراً واقعاً بعد ثورة الوسط والجنوب تحت إمرة على بن خليفة

والقضاء السريع عليها بواسطة حملة فرنسية ثانية . ووافق الباى بمقتضى ميثاق المرسى فى ٨ يونيــه عام ١٨٨٣ م على أن يبدأ بالإصلاحات الإدارية والقضائية والمالية التى ترى الحكومة الفرنسية نفعها للبلاد .

وتعتبر الحماية الفرنسية فاتحة عهد جديد فى تاريخ تونس . ولم تؤثر فيها منذ أن فتحها المسلمون حادثة كهذه الحماية التى غيرت نظامها وحياة أهلها .

وكان الطابع الأصيل لهذا العهد الإبقاء على نظام الحكم القديم فى مظهره وقد ألبس هذا النظام ثوباً جديداً وزيدت عليه نظم حديثة وظل سائداً على رغم ما وجه إليه من نقد .

وظل عظمة الباى هو سيد السلطنة الأسمى وصاحب مملكة تونس ، ولكن صاحب الأمر والنهى فى البلاد هو الوزير الفرنسى المقيم الذى عرف منذ ٢٣ يونيه عام ١٨٨٥م بالمقيم العام . وكان وزيراً مفوضاً للجمهورية الفرنسية فى السلطنة التونسية يأتمر بأمر وزير الخارجية الفرنسية، وكان كذلك وزير خارجية الباى لا يتصل الباى بباريس إلا عن طريقه وكان رئيساً لمجلسه يوقع إلى جانبه على المراسيم التى أصبحت نافذة منذ مرسوم يناير عام ١٨٨٣م . وكان يأتمر بأمره قواد الجيوش فى البر والبحر كما كان يشرف على جميع المصالح الإدارية . ولم يكن للباى سوى حرس صغير مكون من ستمائة رجل ، وكان رعاياه يجبرون على الانخراط فى جيشه الذى كان بمثابة قسم من الجيش الفرنسى ، وقد هلك منه ما يزيد على العشرة آلاف رجل فى سبيل فرنسا إبان الحرب العظمى .

ويتكون مجلس الوزراء من اثنين من الوطنيين صاروا بعد ذلك ثلاثة ومن المديرين أو رؤساء مصالح الفرنسيين ثم قائد جيش الاحتلال وأمير بحرية بنزرت اللذين يقومان بأعمال وزير الحربية وقائد الأسطول .

وأصبحت القائديات التى تنقسم إليها القبائل أقساماً إدارية على رأس كل منها مراقب فرنسى مدنى .

أما المسائل التى تتصل بالمقيم العام والمراقبين المدنيين والقضاء الفرنسى فقد فصل فيها وحدها مراسيم صدرت من رئيس الجمهورية الفرنسية . وتتنازع الحالة السياسية والإدارية والقضائية الآن فى تونس سلطتان إحداهما محافظة يمثلها الباى والأخرى مجددة حديثة هى سلطة الفرنسيين . وكان أهم ماقامت به دولة الحماية هو الحد بقدر المستطاع من التدخل الأجنبى فى شئون المال والقضاء . فضمنت فرنسا الدين التونسى ووافقت بريطانيا العظمى وايطاليا على إلغاء اللجنة المالية ، وعاد الميزان الاقتصادى فى تونس إلى الاستقرار بفضل نظام ثابت لإدارتها المالية ووضع ميزانية لها على المنهج المألوف ، وجعلت للباى مخصصات ينفق منها على بيته وحاشيته . ولا تزال الحكومة الفرنسية تعتمد فى ميزانية تونس بعض المبالغ الخاصة كالإعانة التى ترصدها لأسقفية قرطاجنة ، وأصبحت وحدة العملة هى الفرنك لا القرش بمقتضى مرسوم أول يوليه عام ١٨٩١ م .

وأنشئت محاكم فرنسية بمقتضى القانون الفرنسى الصادر فى ١٠ أبريل عام ١٨٨٣ م ووافق الباى بمرسومه الصادر فى ٥ مايو من العام نفسه على

أن الذين كانوا يتمتعون بالامتيازات يحق لهم التقاضى أمام هذه المحاكم الجديدة ، ولذلك أخذت الدول الأجنبية الواحدة تلو الأخرى تلغى محاكمها القنصلية كما أنها تنازلت عن المزايا الجمركية التى كانت تتمتع بها أيام الامتيازات . وأبدت ايطاليا وحدها بعض التحفظات فلما انتهت معاهدتها مع تونس عام ١٨٦٨ م وهزمت فى عدوة بالحبشة ، اضطرت إلى الاعتراف بالحماية الفرنسية على تونس، ولكن تركيا رفضت الاعتراف حتى معاهدة سيفر ١٩٢٠م . و بالرغم من هذا احتفظت إيطاليا بمكانة ممتازة فى السلطنة وأبت التنازل عنها . و يرحل إلى تونس عدد كبير من الايطاليين وتنشر ايطاليا نفوذها عن طريق الصحافة و بيوت المال ومعاهد الثقافة بنوع خاص . ولا تخضع هذه المؤسسات للرقابة الفرنسية بمقتضى الاتفاقات المعقودة بينها و بين فرنسا وهى تشكو مع ذلك من عدة أمور فيها حيف برعاياها . وفى عام ١٩١٩ اعترفت فرنسا بملكية ايطاليا لواحتى غات وغدامس بمقتضى اتفاق وضع حداً للمشكلة الايطالية المعلقة فى تونس .

وساعدت الحماية فرنسا على أن تقوم فى السلطنة باستغلال الموارد الطبيعية وتزويد البلاد بحاجاتها الثقافيـة والاجتماعية كالمستشفيات والصيدليات و إعداد الأطباء و إنشاء الجمعيات الخيرية والمعاهد العلمية المختلفة . وقد أدى التقدم الحديث والتوسل بالأسباب السليمة الصحيحة إلى انتعاش اقتصادى مشجع .

وتونس بلاد زراعية أولا وقبل كل شىء تنبت الحبوب والكروم

والزيتون والبلح والخضر وكذلك الفلين والحلفاء . على أنها قد أصبحت بمرور الزمن تصدر الحديد والرصاص والخارصين ثم الفوسفات بنوع خاص منذ أن كشف مناجمه ب . توماس عام ١٨٨٥ م ، أما وارداتها فهى الوقود والحاصلات الاستوائية ومقدار كبير من المصنوعات

وتبلغ تجارتها الخارجية حوالى ثلاثة مليارات من الفرنكات وظل ميزانها التجارى فى عجز عدة سنوات، ولم تكن مواردها من قدوم السياح كافية لسد هذا العجز .

وعملت الحكومة على تيسير الاستعمار الأوربى ووضع ملكية الأراضى على نظام حديث . فأصدرت قانونا عقاريا عاماً ينص على أن تسجيل الأراضى اختيارى لا يتم إلا بموافقة محكمة مختلطة أنشئت لهذا الغرض . وصدر مرسوم فى مارس عام ١٩٢٤ م مهد للقيام بمسح الأراضى ، وفى باكورة عهد الاحتلال الفرنسى ترك امتلاك الفرنسيين للأراضى لتصرفهم الشخصى ، ولم تنتهج الحكومة سياسة إسكان الفرنسيين المدنيين فى الأراضى التونسية والسير عليها سيراً حثيثاً إلا منذ عام ١٩٠٠ م وأخذت الحكومة تبتاع الأراضى لتبيعها مرة أخرى بشروط يسيرة جداً للفرنسيين من خريجى المدرسة الزراعية الاستعمارية فى تونس . وأخذ الإيطاليون ينافسون الفرنسيين بكثرة فلاحيهم لا بعدد ضياعهم . ولما رأت فرنسا أن الفرنسيين المدنيين يقل إقبالهم على الهجرة شرعت تسن سياسة لتيسير التجنس ، بيد أن النزاع الذى أثارته انجلترا فى هذا

الصدد أمام محكمة لاهاى الدولية دفع الحكومة إلى إصدار قانون فرنسى فى عشرين ديسمبر عام ١٩٢٣ م يسر التجنس للأجانب والوطنيين تيسيراً كبيراً ووافقت بريطانيا بوجه عام على قواعد هذا القانون وهى متعلقة بصفة خاصة برعاياها المالطيين . أما الايطاليون فقد تخلصوا باتفاقاتهم الخاصة من ضروب التجنيس الاجبارى وإن قبل بعضهم التجنس مختارا . ويبلغ عدد المتفرنسين فى الوقت الحاضر ربع السكان الفرنسيين ، ولا يزيد عدد المسلمين فيهم على ألفين بينما يزيد عدد اليهود على خمسة آلاف .

واحتفظ اليهود وبينهم آلاف من أصل أوربى ، بالرعوية الايطالية .

وظلوا فى غالبية شئونهم من رعايا الباى خاضعين للسلطة والقضاء المحليين ، إلا فى الشئون المتصلة بالأحوال الشخصية فتفصل فيها محكمة تونس الربانية كما يفصل فيها أيضا كتاب العقود الاسرائليين . ولا يؤدى يهود تونس الخدمة العسكرية كما أنهم لا يلتحقون بوظائف الحكومة على وجه عام . ويثير تقدمهم السريع فى مضمار الحضارة الأوربية مشكلة تجنيسهم جملة أو زرافات بالجنسية الفرنسية وبمقتضى المرسوم الصادر فى ٣٠ أغسطس عام ١٩٢١ م أنشأت الحكومة لليهود جميعاً على اختلاف جنسياتهم مجلساً ملياً يتألف من اثنى عشر عضواً ينتخبون على درجتين ومدة عضويتهم أربع سنوات . ولهذا المجلس حق الفصل فى المسائل المتصلة بالاعانات والعبادات . وتعين الحكومة رؤساء الطوائف اليهودية الأخرى وكذلك حاخام الربانيين الأكبر . ولا يقبل اليهود على القيام بشعائر دينهم وإن كان للدعوة الصهيونية هناك مكانة ملحوظة .

وقد سعت الحكومة الفرنسية إلى النهوض بالإدارة الوطنية والأحوال الاقتصادية والدينية للمسلمين مع احترام شعورهم الدينى ولاتزال أمامها عدة مشاكل لم تحل . وتتطور الجمعتا الإسلامية تطوراً جوهريا على الرغم من مقاومتها للحياة الأوربية . ومن سبق الحوادث التكهن بنتائج هذا التطور . أما حركة الدستور التى تطالب بالحكم الذاتى والتى نشطت فى أعقاب الحرب فقد كبح جماحها المقيم العام لوسيان سانت ، وكان بارعاً فى ذلك. والظاهر أن الأهلين راضون الآن بالاصلاحات التى اتجهت إليها حكومة الحماية فى سياستها الداخلية ما بين سنتى ١٩٢٠و١٩٣٠ م .

وتقوم السياسة الفرنسية الآن على مبدأين أساسيين : نزوع إلى زيادة التعاون تدريجاً مع الأهالى الوطنيين وتوسع فى سلطان المجالس المنتخبة .

وقد تمتع الأهلون بحقوق جديدة كانشاء المجالس البلدية والتوسع فى حرية الصحافة والاجتماع .

السكان

تضم سلطنة تونس إلى جانب المسلمين واليهود ، عدداً يتزايد على الأيام من الأوربيين ، وذلك نتيجة لهجرة الإيطاليين إليها ، وحماية الفرنسيين لها . وقد بلغ عدد السكان فى إحصاء عام ١٩٢٦ للميلاد ، ٢و١٥٩و٧٠٨ نسمة بينهم ١و٩٣٢و١٨٤ مسلماً و٥٤و٢٤٣ يهودياً تونسياً ، لايدخل فيهم اليهود المتجنسون بالجنسيات الأوربية .

أما الأوربيون فيبلغ عددهم ١٧٣و٢٨١ شخصاً ، منهم ٧١و٠٢٠ فرنسياً و٨٩و٢١٦ إيطالياً ، ٨و٣٩٦ مالطياً من رعايا بريطانيا ، و٤و٦٤٩ شخصاً يتجنسون بجنسيات أوربية أخرى .

وقد وفد أغلب الإيطاليين من صقلية وسردينيا ، وهم يشتغلون بالبناء والتعدين والزراعة وفلاحة الكروم . أما الفرنسيون فأغلبهم موظفون فى الحكومة وتجار ومستعمرون .

ويسكن جمهور الأوربيين منطقة مدينة تونس ، وكذلك يقيمون فى غيرها من المدن الساحلية . فمنهم ١٠٣و٠٠٠ فى تونس

٦و٧٠٠ فى بنزرت

٤و١٥٠ فى فريفيل

٦و٩٠٠ فى سوسة

٦و٩٠٠ أيضاً فى صفاقس

أما اليهود التونسيون ، فيعيش أكثر من نصفهم فى مدينة تونس أى حوالى ٢٨،١٤١ شخصاً ، ويقيم أكثر من ٣،٧٠٠ منهم فى سوسة ، وحوالى ٣،٣٠٠ فى سفاقس ، وكثير منهم فى بنزرت وباجة ونابل ، وقليلون يسكنون داخل القطر . أما فى الجنوب فيسكن قابس حوالى ٢٥٠٠ منهم وفى جربة ٣٨٠٠ ، وفى المناطق العسكرية أكثر من ٢٥٠٠ .

أما توزيع السكان عموماً على أهم مدن تونس ، فهو كما يلى :

تونس	١٨٥،٤٦٦	قابس	١٥،١١٩
سفاقس	٢٧،٧٢٣	نفطة	١٣،٢٥٠
سوسة	٢١،٢٩٨	مكنين	١٢،١٩١
بنزرت	٢٠،٥٩٣	القلعة الكبيرة	١١،٨٣٠
القيروان	١٩،٤٢٦	توزر	١١،٠٥٦
مساكن	١٦،٦٢٠	باجة	١٠،٤٦٨

ويلاحظ أن مساكن والقلعة الكبيرة — وكلتاهما على الساحل — لا يعيش فيهما إلا المسلمون .

أما عن القبائل التى تعيش فى تونس ، فلسنا نستطيع أن نحدد تطورها ، أو نبين نظامها ، حتى ولو أسقطنا من حسابنا تلك الحواضر والمدن المكتظة بالسكان ، حيث تختلط عناصر جنسية مختلفة . فنحن نجهل أصول كثير من هذه القبائل ، ولا نعرف بالضبط كيف انحلت أواصرها ، واختفت معالمها .

وظل الجند العرب ، أمداً طويلا ، قلة فى العدد لا تحدث تأثيراً ذا خطر ،

فى الجنس البربرى التونسى . أما العامل الهام فى تغيير هذا الجنس ، فكان غزوة بنى هلال فى منتصف القرن الحادى عشر ثم غزوات بنى سليم (ق١٢، ١٣م .) ذلك أن هؤلاء الأعراب طردوا الأهالى البربر إلى النجاد ، واحتلوا السهول ، وعرّبوا القطر التونسى وأخضعوا السكان إخضاعاً تاماً لسلطانهم ، فأصبح من المستحيل الآن التمييز بين قبائل العرب والبربر .

وصفوة القول ، أن القطر التونسى هو أكثر أقطار إفريقية الشمالية استعرابا . وإن ظلت فيه بعض القبائل البربرية إلى الآن .

إن حياة البداوة فى القطر التونسى مشرفة على الزوال . ولم يعد السكان يهاجرون إلا فى سنين المجاعة والقحط . وكانت العادة أن تستقر القبائل فى منازلها ، ولا يرحل إلا قليل من الرعاة بأغنامهم . ولم تكن تنتقل إلا قطعان الماشية ، فتقضى الشتاء فى الفيافى ، وتمضى الصيف فى التل . وقد يقضى المهاجرون أياما فى سهل كمودة ، أما المثاليث ، فيهاجرون وحدهم فى الصيف حتى بنزرت والجلاص وسواسى بجوار باجة ، ولا يزال البدو يسكنون نفزاوة وصحراء تونس .

وقد سارت حكومة الحماية على ترغيب الناس فى حياة الاستقرار ، بتسهيل حيازتهم للأراضى ، وتوجيه جهودهم إلى الزراعة . وقد نفذ قانون سمى بـ « المغارسة » بمقتضاه يصبح لمن يزرع الزيتون فيما يمنح من الأرض ، الحق فى امتلاك نصف هذه الأرض عند ما تبدأ أشجار الزيتون فى الإثمار . أما التشريع الخاص بتنظيم الحبوس ، فقد ساعد بعض

الأسر الوطنية على الاستقرار بمنحهم حقوقاً ثابتة فى استثمار الأراضى . وقد نظم استغلال المزارع الجماعية فى المناطق العسكرية الجنوبية بمقتضى مرسوم ٢٣ ديسمبر ١٩١٨ ، فأصبحت كل مجموعة من الأراضى وحدة يشرف عليها مجلس من الأعيان .

كذلك كان للحماية الفرنسية الفضل فى تمكين الملاك من إصلاح وسائل الرى ، وتوزيع الأراضى الزراعية على الفلاحين و إنشاء وسائل الرى ، وتوزيع الأراضى الزراعية على الفلاحين و إنشاء السكك الزراعية ، وتأسيس الإدارة العامة للتسليف الزراعى . وفيما يلى بيان بعدد المواشى التى كان يمتلكها الوطنيون والأجانب عام ١٩٢٨ : —

	الوطنيون	الأجانب		الوطنيون	الأجانب
الخيل	٧٧,٠٠٠	١٠,٥٠٠	الغنم	٢,٠٠٠,٠٠٠	١٠٣,٥٠٠
الحمير	١٥٧,٠٠٠	٢,٥٠٠	الماعز	١,٣٦٠,٠٠٠	٣٠,٥٠٠
البغال	٢٨,٥٠٠	١١,٥٠٠	الخنازير	٦,٠٠٠	١٣,٠٠٠
المواشى	٤٣٠,٠٠٠	٥٥,٠٠٠	الابل	١٥١,٥٠٠	٣٠٠

وللوطنيين تسعة ملايين شجرة زيتون تؤدى عليها الضرائب ، وأربعة ملايين وثمانمائة ألف معفاة منها ، وللأجانب ٨٧٨,٠٠٠ شجرة تؤدى عليها الضرائب ، ومليون ومائة ألف لا تؤدى عليها .

وهناك بضعة آلاف من الأهالى يعيشون على صيد السمك . وقد بطل الآن سكنى الخيام فى القطر التونسى ، مما يدل على استقرار الأهلين . وفى الجنوب نوعان من المساكن ، أحدهما يبنى تحت سطح الأرض ، والآخر

يسمى بالقصور أو الغرف وهى مبان مستديرة طويلة ضيقة منحنية الجوانب تستعمل للتخزين . وعدد سكان المدن من الأهالى الوطنيين ، كبير بالقياس إلى غيرهم ، إذ يبلغون ١٨ ٪ من مجموع السكان . وقد اشتهر القطر التونسى بتقدم الحياة الحضرية فيه ، وبمدينة تونس ، أجانب مسلمون ، لكل منهم حى خاص .

أما التجارة الوطنية ، فآخذة بأسباب التقدم الحديث . ومن أهم مظاهر هذا التقدم ، تلك الجمعيات التعاونية التى أسسها البدالون فى جربة لشراء ما يحتاجون إليه ، وبمدينة تونس عدد كبير من هذه الجمعيات . أما الصناعة المحلية فقد لقيت عناء شديداً لمنافسة السلع الأجنبية لها زمناً طويلاً ، على أن الحكومة قد عملت ما فى وسعها لحماية هذه الصناعة ، وبخاصة الصناعة الفنية ، فأنشأت لها معاهد نظامية ، وبذلت الجهود لتحسين الوسائل الحرفية والفنية فى الصناعة .

ومن أقدم الصناعات القائمة فى تونس ، صناعة الزيت والصابون ، والصباغة التى يهددها الآن استيراد الأنيلين من أوربا ، ثم نسج الصوف والبطاطين ، فى جربة وقفصة ، والجريد ، ونسج القطن فى تونس ، والحرير فى تونس وقصر هلال ، وشعر الماعز والإبل فى الجنوب ، والسجاد ، ويقوم بصبغه النساء وبخاصة فى القيروان ، ثم الطرابيش فى تونس ، والخزف فى نابل . وكذلك نذكر منها صناعة المناخل فى تونس والقيروان وسوسة ، والحصر والسلال وتقطير الكحول فى نابل ودبغ الجلود وصناعة الأحذية

فى تونس والقيروان ونابل والسروج فى تونس والآلات القاطعة والمصنوعات المعدنية والحجرية والخشبية . أما صناعة القصدير ، فيحتكرها اليهود ، ومنهم بعض صناع الأحذية ، وكثير من الخياطين ، وأغلب الصاغة .

وقد نظم مرسوم الباى نقابات ذوى الحرف ، وأهمهم صناع الشواشى ، الذين قد يقبلون فى زمرتهم بعض اليهود ، ويشترطون أن يكون أمين النقابة مسلماً . أما صناعة الشاش ، فلا تزال تحتفظ بمكانتها على الرغم من منافسة الواردات من فرنسا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا ، و إقفال السوق التركية فى وجهها ، وقد بلغ معدل إنتاج هذه الصناعة خمسين ألف كيلوجرام ، يصدر نصفها إلى الخارج .

وفيما يلى بيان لطوائف الحرف فى تونس ، كما وردت فى إحصاء إدارة الزراعة :

الطائفة	عدد رؤساء العمل	عدد العمال	الطائفة	عدد رؤساء العمل	عدد العمال
صناع الشواشى	٢٠٠	٦٠٠	صناع الأحذية	٢٠٠	٣٠٠
الخياطون	٦٠	١٠٠	صناع الجلود والسروج	٢٠	٧٠
صناع البرانس	١٢٠	١٥٠	الصياغ والجواهرية	٤٥	٧٠
الطحانون	١٠	٤٠	النجارون	٩٠	١٢٥
نساجو الحرير	٣٠٠	١٢٠٠	الحدادون	٢٠	٣٥
غزالو القطن	١٠٠	٣٠٠	الرسامون والنقاشون	١٠٠	٢٣٠
الصباغون	٣٠	٤٥	الدباغون	٢٥	٤٥

وخلاصة القول أن شيوخ الصناعة وعمالها فى تونس يبلغون ٤٦٣٠ شخصاً .

الدين الإسلامى

ظلت تونس على المذهب المالكى أمداً طويلا ، أما جزيرة جربة فثلاثة أخماس سكانها من الخوارج ، ويتمسك الترك أو الذين يدعون أنهم كذلك ، بالمذهب الحنفى . وهؤلاء قلة ، ولكنهم من الخاصة ، ولهم امتيازاتهم ، لأن منهم أسرة الباى . وكان يقوم على المناصب الدينية الرفيعة أيام الحفصيين ، « قاضى الجماعة » و « قاضى الأنكحة » اللذين يعينهما السلطان ، كما كان يعين المفتى الأكبر والخطيب . ويلى هؤلاء فى المرتبة ، قاضى المعاملات ، وقاضى الأهلة ، أما قاضى المحلة فيصحب الجند إلى ميدان القتال .

وضعف سلطان القاضى على الأيام حتى خضع لنفوذ المفتى ، فصارا يجلسان معاً فى المحكمة الشرعية ، وتلقب مفتى الحنفية الأكبر « الباشمفتى » أيام الترك بشيخ الإسلام ، ولا يزال هذا لقبه إلى الآن . أما مفتى المالكية الأكبر ، ولم يكن ذا منصب رسمى رفيع ، فقد شُرِّف بهذا اللقب فى بعض الأحيان . وكان فى كل مدينة من مدن القطر التونسى ، مجلس مالكى ، يقضى فى مسائل الشرع المتعلقة بالأحوال الشخصية ، من معاملات وزواج وطلاق ، ووصية ، وولاية وميراث . ويتألف هذا المجلس من قاض ومفت

واحد أو أكثر . وفى الديوان بمدينة تونس مجلس حنفى إلى جانب المجلس المالكى . وكلاهما يحكم فى القضايا التى يرفعها إليهما المتقاضون أو يحولها إليهما قضاة آخرون .

ونظمت أعمال المحاكم بمرسومى ١٨٥٦ ، ١٨٧٥ ، و ينظمها الآن مرسوم ١٥ ديسمبر ١٨٩٦ الذى ضبط المراسلات ونص على قيدها فى سجل خاص يقوم عليه مسئولون . وصدر فى ٣ مارس سنة ١٩٢٦ مرسوم يفرض رسوماً على القيد ، و بعد ثلاثة أيام صدر آخر ، يعفى الأهلين من هذه الرسوم . وأصبح المسجلون يعينون وفقاً لمرسوم ٢٨ يناير ١٩٣٠ . أما « العدول » أو كتاب الشرع فيكون تعيينهم بمرسوم يصدره الباى . وقد نظم قانون ٩ يناير ١٨٧٥ طريقة اختيارهم وتدريبهم . و يتم تعيينهم بناء على ترشيح القضاة . وكان الطلبة القدماء فى الجامع الكبير ، يعينون عدولا ، بمجرد حصولهم على إجازة الجامع ، دون تدريب سابق .

ثم وضعت قواعد جديدة بمرسوم ١ يوليه ١٩٢٩ ، الذى أصبح نافذاً فى ١ يناير ١٩٣١ واشترط فى تعيين العدول . ألا تقل أعمارهم عن ٢٤ عاما ، وأن يقضوا عامين أو ثلاثة فى ممارسة العمل بأحد مكاتبه ، وأن يجتازوا امتحاناً يتطلب علماً بالتشريع التونسى ، وترخص إجازة الجامع الكبير لحاملها التقدم لامتحان الدرجة الأولى للعدول ، الذى يمكن من يجتازه من ممارسة العمل بالمدن الكبيرة . أما الذين يجتازون امتحان الدرجة الثانية ، فإنهم يمارسون أعمالهم فى مدن أقل شأناً . وتعد وزارة العدل ، دفاتر القيد ، وتراجعها ، وتفرض عليها تفتيشاً جدياً منظماً .

وتعرف الأعيان الموقوفة فى تونس « بالحبوس » . ويشرف عليها منذ أيام خير الدين ، جمعية اعترف بها مرسوم صادر فى ١٩ مارس ١٩٢٤ . وعلى رأس هذه الجمعية مدير ، ومجلس إدارة . وهى تنقسم إلى إدارات ، لها « نواب » يقوم عنهم بالإدارة الفعلية وكلاء آخرون . وقد وضع قانون عام ١٩٠٨ ، هذه الجمعية تحت إشراف « مجلس الأوقاف الأعلى » الذى يشرف عليه « صاحب القلم » والمدير العام للداخلية . وكان للجمعية الحق فى الإشراف على إدارة الحبوس الخاصة . وقد كان التشريع التونسى بارعاً فى التخلص من مشكلات الحبوس ، فوضع لذلك إجراءات ثلاثة :

أولا — عقد الإنزال ، وهو التنازل عن الحبوس نظير إيجار دائم . وفى عام ١٩٠٥ أصبح مدين الإنزال قادراً على تسديد دينه ، وصارت الأراضى تباع بالمزاد العانى ، إلا إذا حفظت حقوق المستغلين لها .

ثانياً — طريق الاستبدال نوعاً ، أو نقداً .

ثالثاً — الايجار لآجال طويلة .

وتشرف الجمعية السابقة على بيت المال ، فتبذل العطايا ، وتنفق على أعمال البر ، وتتولى الحبوس التى ليس لها وريث .

* * *

أما « رباطات الإخوان » فى تونس ، فليس من المستطاع إحصاؤها ، ويزيد عدد الإخوان على ستين ألفاً . وقد ورد فى تقرير وضعه المقيم العام سنة ١٩٢٤ ، أن عدد الفقراء أو الإخوان فى منطقة الكاف وحدها ، ثمانية

عشر ألفاً ، ويبلغ عددهم فى باجة ثلث عدد السكان جميعاً . وفى تيطاوين وما جاورها ثلاثة عشر ألف فقير . وأشهر الطرق الصوفية فى تونس أربع : القادرية ، والرحمانية ، والعيسوية ، والتيمانية . وإخوان الطريقة العروسية كذلك ، كثير عددهم . وهناك طرق أخرى متفرعة كالمدنية والشاذلية والطيبية ، إلى جانب الطريقة البوعلية فى نفطة . ويقدر الموظفون الإداريون عدد إخوان الطريقة الرحمانية والقادرية فى طبرقة وتالة بخمسين فى المائة ، وأربعين فى المائة من مجموع الإخوان . ولكن بعض الطرق غلبت هاتين الطريقتين فى مناطق أخرى . وتنتشر الطريقة العلوية التى نشأت حديثاً فى الجزائر

والحق أن هذه الطرق لا أثر لها فى شئون السياسة ، كما أن سلطانها الدينى آخذ فى الضعف . وتعرف معاهد تحفيظ القرآن الكريم فى تونس بالكتاتيب . وفى مقدمة هذه المعاهد ، مدارس يشرف عليها أساتذة متخرجون فى الجامع الكبير ، وتنفق عليها الجمعية تحت إشراف مدير المعارف العمومية . وليست هذه المدارس الآن سوى منازل يسكنها طلبة الجامع . ويندر أن تلقى فيها الدروس ، اللهم إلا المدرسة العصفورية التى تخرج « مؤدبين » أو معلمين للكتاتيب .

وقد أصبح الجامع الأكبر فى عهد الترك مركزاً للعلوم الدينية فى تونس ، وهو إلى الآن المعهد الدينى الوحيد . ويضم حوالى ألفين من الطلاب ، يفدون إليه من أنحاء تونس وطرابلس والجزائر ومراكش . ومناهج

التعليم الحديثة فيه ، نظمها قانون صدر فى ٢٧ رمضان ١٢٥٨ ، سمى بالمعلقة لأنه علق على باب الشفاء من أبواب الجامع الكبير .

وهيئة التدريس فيه ثلاثون عالماً . نصفهم مالكى ، والنصف الآخر من الحنفية . وكان كل عالم يلقى فيه درسين فى اليوم ، ما عدا أيام الخميس والجمعة ، والعيدين وشهر رمضان . ويتقاضى العالم قرشين فى اليوم ، إلا إذا تغيب بلا عذر مقبول . ويعين شيخا الإسلام المالكى والحنفى ، ناظرين للمعهد ، يتقاضى كل منهما مائة قرش فى الشهر ، يعاونهما قاضيان من المذهبين ، مرتب كل منهما ثلاثة قروش فى اليوم . وكان الشيخان والقاضيان يحضرون جلسات المشرفين على بيت المال ، الذى يأخذون منه رواتبهم ، فإن وجدوا فى بيت المال فائضاً ، وزعوه بشروط خاصة ، على النابهين من الطلاب . ويعين المدرسون بمقتضى مرسوم من الباى ، بعد مشورة الشيخين والقاضيين .

ثم صدر أمر عال من سبعة وستين بنداً ، أيام خير الدين ، نظم أمور المعهد فى شيء من التفصيل ، وتناول العلوم التى تدرس بالمعهد ، والكتب التى تشرح ، وحقوق الطلبة والمدرسين والمشرفين ، وواجباتهم ، وكذلك شئون المكتبة .

ثم بدت رغبة فى إصلاح هذه النظم ، وتعديل الأمر العالى السابق ، فصدر أمر آخر فى ١٦ سبتمبر سنة ١٩١٢ ، من واحد وثمانين بنداً ، وبعض الملاحق ، ويسير المعهد على هديه إلى الآن . وفى هذا القانون ،

آثار من النظم التربوية العتيقة ، ووصايا تحث على الاستقامة وحسن الخلق وتحريم الشك فى السنن التى خلفها السلف من العلماء . وتدرس فى المعهد علوم تزيد وتختلف عن العلوم التى قرر دراستها فى الأزهر عام ١٨٧٢ . وقد نص على هذه المواد التى تدرس فى الجامع الكبير ، فى البند الأول من الأمر العالى ، وهى : —

التفسير . الحديث . التوحيد . القراءات . والتجويد . المصطلح . السير . أصول الفقه . الفقه . الفرائض . التصوف . الميقات . النحو والصرف . المعانى والبيان . اللغة والإنشاء والأدب . التاريخ والجغرافيا . الرسم والخط . العروض . المنطق وأدب البحث . الحساب والهندسة . الهيئة . المساحة .

وأدت روح المحافظة الجامدة ، وطرق التربية العتيقة ، المتبعة فى الجامع الكبير ، إلى الوقوف فى سبيل كل تقدم فى العلوم الدنيوية ، وكل اجتهاد فى العلوم الدينية . واقتصر تدريس الجغرافيا والتاريخ على كتابى رقم الحلل لابن الخطيب . ومقدمة ابن خلدون ، مع استيعاب خلاصة للتاريخ الإسلامى . أما الهندسة فهى الهندسة الإقليدية، وتدرس فى كتاب الطوسى.

ومراحل التعليم ثلاث ، ويعقد امتحان للانتقال من مرحلة إلى أخرى . وفيما يلى بيان بالكتب المقررة فى الدين واللغة ، لطلبة المرحلة النهائية ، كما نص على ذلك فى المادة الرابعة .

التفسير : أسرار التنزيل للبيضاوى ، تفسير الجلالين .

الحديث : الموطأ مع شرح الزرقانى ، صحيح البخارى وتفسير القسطلانى ، صحيح مسلم وشرح الأُبِّى ، الشفاء للقاضى عياض وشرح الشهاب الخفاجى .

السير : المواهب اللدنية للقسطلانى وشرح الزرقانى . السيرة الكلاعية .

التوحيد : شرح الجرجانى على مواقف عضد الدين الإيجى . شرح التفتازانى على العقائد لعمر النسفى . الكُبْرَى للشيخ السنوسى .

أصول الفقه : التوضيح لصدر الشريعة عبيد الله المحبوبى . شرح عضد الدين الإيجى على المختصر لابن الحاجب : شرح المحلى على جمع الجوامع لعبد الوهاب السبكى .

الفقه : تبيين الحقائق لعثمان الزيلعى ، (شرح كنز الحقائق لعبد الله النسفى) الدرر (شرح الغرر) . شرح سيدى عبد الباقى على المختصر للخليل . شرح سيدى محمد الخرشى على المختصر للخليل .

التصوف : إحياء علوم الدين للغزالى .

النحو : مغنى اللبيب لابن هشام .

المعانى والبيان : الجزء الثالث من المفتاح ليوسف السكاكى مع شرح الجرجانى ، المطول للتفتازانى .

اللغة والانشاء والأدب : المزهر للسيوطى . فقه اللغة للثعالبى ، شرح المرزوقى على ديوان الحماسة . المثل السائر لابن الأثير .

* * *

ويطلق اسم المدرسين الأوائل ، على المدرسين الثلاثين الأصليين ، ومعهم مدرس التجويد . وهم متأهلون للتدريس فى المرحلة العليا . أما فى

المرحلة الوسطى ، فهناك اثنا عشر مدرساً وآخر للتجويد . ويقوم بالتدريس في المرحلة الأولى مدرسون متطوعون ، ومتخرجون في الجامع الكبير ، ولا يتناولون أجراً (كما نص في المادة التاسعة) . وللمدرسين عطلة شهرين من منتصف يوليه إلى منتصف سبتمبر ، وشهر رمضان ، وأيام الجمع ، وخمسة أيام في كل من عيد الفطر وعيد الأضحى ، ويوم عرفات ويومين قبله ، ويوم عاشوراء ، والحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من ربيع الأول (المادة التاسعة والعشرون) . أما يوم الخميس ، فقد نص على أنه يوم عمل (المادة الثامنة والعشرون) . وعلى كل طالب أن يحمل معه جدولا يوقع عليه المدرسون مرة كل شهر (المادة الثانية والثلاثون) . ويشهدون بأن حامله يحضر الدروس المقررة عليه (المادة الثالثة والثلاثون) . وعلى المشرفين الذين يعينهم النظار ، المحافظة على النظام (المادة الأربعون) ويؤدي النظار واجباتهم بعناية تامة ، وفق قواعد المعلقة (المادة الرابعة والأربعون وما بعدها) وقد صدر ملحق في اليوم نفسه ، من إحدى عشرة مادة ، يضع الشروط الخاصة بالامتحان النهائي الذي يخول الطالب حق إجازة التطويع ويبيح النجاح التحريري في الفقه ، الانتقال إلى مرحلة أعلى (المادة السادسة) . وللطالب الحق عند الامتحان الشفوي ، أن يستعد له ست ساعات ، يستجمع فيها ما حصله من علم ، مستعيناً في ذلك بالمكتبة .

ويتأهل الطالب لنوع خاص من التطويع إذا نجح في قراءة القرآن الكريم وتسميعه .

وعُيّن عام ١٩٢٨ — خمسون « معاوناً على التدريس » ، بامتحان مسابقة عقد بين المتطوعين . وهم يتقاضون مرتباً ثابتاً قدره خمسمائة فرنك فى الشهر . وفى أول يناير ١٩٣١ كانت المخصصات السنوية للمدرسين ، فى المرحلة الثانية ، ١٣ ألف فرنك ، وفى المرحلة الأولى ستة عشر ألفاً .

وتضمنت الميزانية التونسية اعتماد إعانة مالية للجامع الكبير ، كان مقدارها فى السنة الأولى ، خمسين ألف فرنك ، وارتفعت عام ١٩٢٧ إلى مائتين وخمسين ألفاً من الفرنكات ، ثم وصلت إلى سبعمائة وسبعين ألفاً عام ١٩٣٠ .

وقد أدى التعديل الجديد لنظام العدول ، إلى معارضة الطلبة الذين لا يستطيعون الالتحاق بهذه الوظائف ، والذين لا تسمح لهم دراستهم فى الجامع ، بالنجاح فى امتحان العدول . ومن هنا ، نشأ التفكير فى إصلاح التعليم الدينى ، أو على الأقل إدخال الدراسة القانونية العصرية فى مناهج الجامع . فشكلت الحكومة فى ديسمبر عام ١٩٢٩ ، لجنة تبحث وسائل الإصلاح ، فحاولت جهد طاقتها أن تضع لهذا الإصلاح منهجاً خاصاً .

***

أما عن التعليم الحديث ، فتقوم المدرسة الصادقية بتعليم اللغة الفرنسية والعربية إعداداً للوظائف الإدارية ، وكانت تضم ٤١٧ طالباً فى العام الدراسى ١٩٢٨ — ١٩٢٩ .

ويزداد إقبال الشباب المسلمين على المدارس الفرنسية ، وهى مدارس

ابتدائية تعلم العربية والفرنسية ، ومدارس خاصة بتعليم البنات المسلمات ، ثم مدارس ثانوية تفتح أبوابها للجميع . وفى آخر عام ١٩٢٨ ، كان عدد الطلبة المسلمين فى مدارس تونس الفرنسية ٢٥٫٨٧٦ طالباً و٢٩٣٠ طالبة ، عدا سبعة وستين ولداً و٦١٧ فتاة فى مدارس خاصة . وكان عدد تلاميذ الليسيه كارنو ألفين بينهم ٣٥٩ تلميذاً مسلماً ، وفى الليسيه الخاصة بالبنات ١٢٠٠ فتاة ، منهن ثمان وعشرون مسلمة . وكان كذلك ٤٦١ تلميذاً مسلماً يطلبون العلم فى ثلاثة معاهد أخرى .

وهناك معهد عال فى مدينة تونس ، يعلم اللغة والأدب العربى ، ويمنح الطلبة الأجانب إجازة فى اللغة العربية الدارجة ، وأخرى فى اللغة العربية الفصحى ، ودبلوماً عالياً فى اللغة العربية للطلبة المسلمين وغيرهم .

وقد نظمت الجمعية الخلدونية الإسلامية ، تحت إشراف المقيم العام ، دراسات عربية فى جميع العلوم ، يستمع إليها حوالى مائتين من الشبان .

كما أعدت إدارة العدلية فى تونس دراسات قانونية باللغة العربية تؤهل الوطنيين للاشتغال بالأعمال المتصلة بالقضاء ؟

اللغـــة

اختفت اللهجات البربرية من تونس أوكادت ، حتى إننا لا نصادف من يتكلم البربرية فيها إلا فى سند بمنطقة قفصة، وتمزرد بين قبائل مطماطة ، وفى جزيرة جربة ، حيث تتحدث النساء خاصة ، بألفاظ بربرية قديمة .

وقد تم استعراب اللغة فى تونس ، وإن يكن ذلك على مراحل ، لا نعرف تفاصيلها على وجه التدقيق . والظاهر أن هـذا الاستعراب قد حدث بأسرع مما نتصور وبخاصة فى مدن الساحل . وقبل أن يشن بنو هلال وسليم غاراتهم على تونس ، انتشرت لغة الحواضر بين الفلاحين ، فغيروا فيها ، ونشأت بذلك لهجات ريفية . وتختلف لغة البدو ، فى حروفها وقواعدها ، عن عربية الحضر ، وكذلك عن لغة المدن الساحلية .

ويلاحظ أن اللغة الغالبة على تونس ، كانت أكثر لغات بلاد المغرب محافظة على عروبتها ، وإن استعارت بعض المفردات التركية والإيطالية ، وهى الآن تكثر من استعارة الألفاظ الفرنسية . أما عربية اليهود ، فتأثرها بالفرنسية أشد ، وقد تنقرض لغتهم هذه قبل أن يتمكن العلماء من دراستها .

ولنتحدث الآن عن الصحافة الوطنية فى تونس . . .

ظل إصدار الصحف محرماً بها أمداً طويلاً ، بل إن الطباعة وتجارة الكتب كانت مقيدة وخاضعة للرقابة الإدارية التى نظمت عام ١٨٧٠ بالمرسوم الصادر لتنظيم الدراسة بالجامع الكبير .

وأخذت جريدة « الرائد الرسمى التونسى » منذ عام ١٨٥٩ تنشر بعض الأخبار الإدارية ، وقد تنشر بعض المواد الأخرى ثم صدر فى ١٤ اكتوبر ١٨٨٤ مرسوم ، أعقبه مرسوم آخر فى ١٦ أغسطس (١٨٨٧) يرخصان بإصدار الصحف الفرنسية والإيطالية والعربية . وظهرت بعد ذلك بعام ، صحيفتان يوميتان عربيتان هما : « الحاضرة » لأبى شوشة و « الزهرة » للشاذلى . ولا تزال الصحيفة الأخيرة تصدر إلى الآن ، وتعد من صحف المحافظين ، وإن كانت فى أول أمرها تدعو إلى التجديد . وبجانب هاتين الصحيفتين ، تصدر صحيفة « النهضة » كل يوم ما عدا يوم الاثنين . وأغلب الصحف العربية التونسية الآن أسبوعى : « الزمان » و « لسان الشعب » و « الصواب » و « النديم » و « الزهو » . أما صحيفة « الوزير » فهى شهرية ، وكذلك صحيفة « المنير » التى تصدر فى غير نظام .

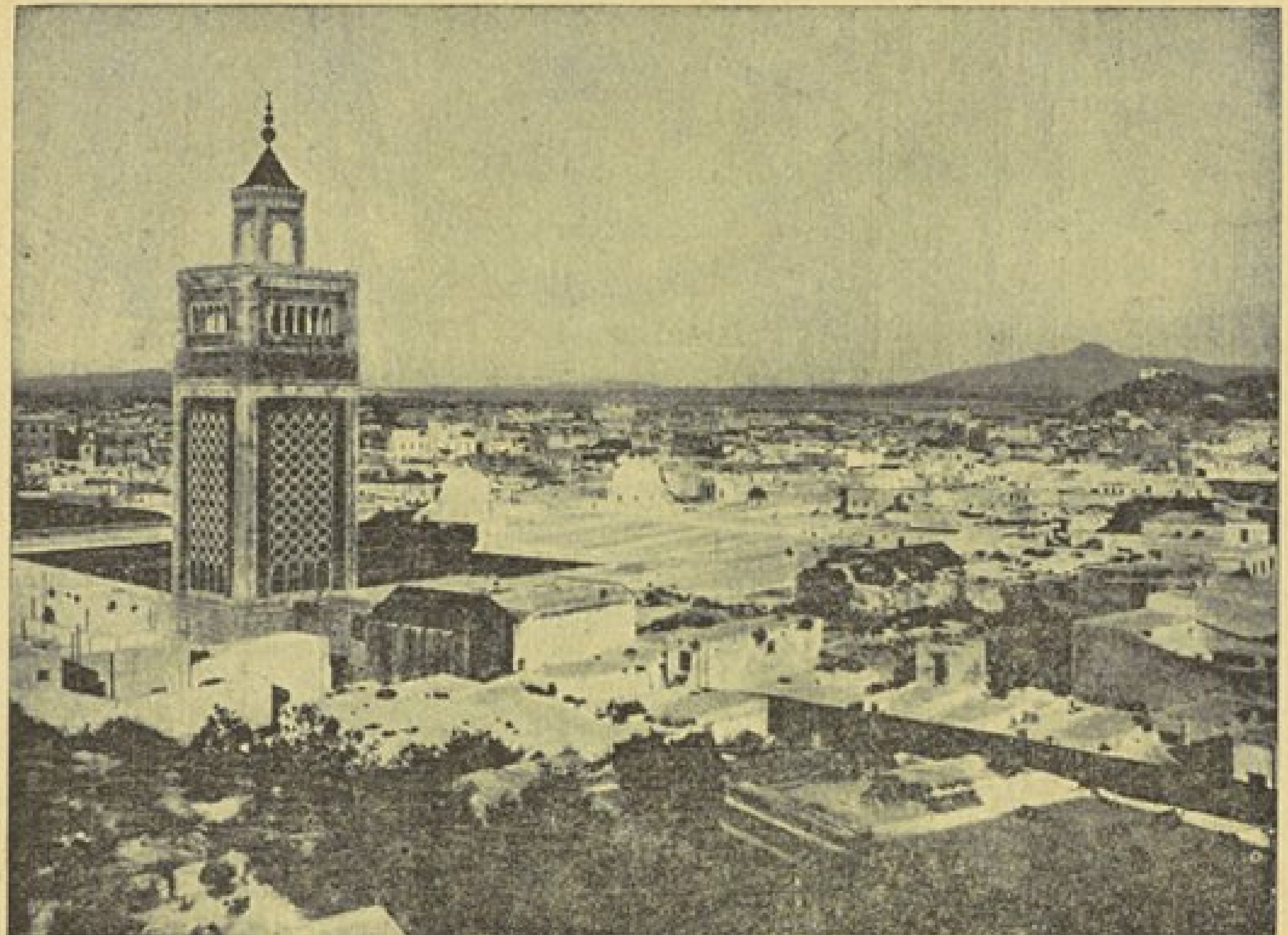
وقد ظهرت أخيراً مجلة شهرية مصورة ، تعنى بالتاريخ والأدب ، واسمها « العالم الأدبى » . غير أن أوسع المجلات الأدبية انتشاراً فى تونس ، هى المجلات التى ترد إليها من القطر المصرى .

وصدر تقويم يسمى « الرزنامة التونسية » من ١٨٩٩ — ١٩٢١ . ثم حلت محله نشرة سنوية إدارية ، تسمى « التقويم التونسى » .

وجدير بنا أن نلاحظ تلك الجهود الضائعة فى سبيل إنشاء صحافة عربية محلية ، كالذى بذل فى إنشاء صحيفة «العصر الجديد» فى سفاقس ، و «القيروان» فى مدينة القيروان ، بينما نجحت مجلة فرنسية أسبوعية صغيرة ، يصدرها بعض المسلمين فى سفاقس واسمها « تونس الجديدة » ، لزهير العياضى ؛ كما انتشرت مجلات أخرى منها « التونسى » لباش حانبا ، و « صوت التونسى » للشاذلى خير الله ، وقد حلت محل صحيفة « العلم التونسى » ، التى أخذت بدورها مكان صحيفة « الحر » ، ثم أصدر عبد العزيز لروى فى أغسطس ١٩٣٠ مجلة « الهلال » . وفى هذه الصحف التى تصدر كلها بالفرنسية ، نزعة وطنية إسلامية .

وقد كان لليهود أدب وصحافة باللغة العربية اليهودية ، تكتب بحروف عبرية ، ولكن هذه اللهجة اندثرت وقضت عليها اللغة الفرنسية ، فلم يعد يصدر بها إلا مجلة صغيرة اسمها « الصباح » .

ولليهود الآن صحف أسبوعية ثلاث تصدر بالفرنسية ، « المساواة » وهى محافظة ، ثم « العدل » وهى معتدلة والأخيرة تسمى « الصحيفة اليهودية » . وهى أروجها ، تدعو إلى الصهيونية ، أسسها فلكس ألوش عام ١٩٢٤ فى سفاقس ، ثم نقل إدارتها أخيراً إلى مدينة تونس .



مدينة تونس ومسجدها الجامع

مدينة « تونَس »

ويُقـال « تونِس » : حاضرة سلطنة تونس ، على خط عرض ٣٩″ ٤٧′ ٣٦° شمالا وخط طول ١٠′ ١٠° شرقى جرينتش . وتونس فى الوقت الحاضر مدينتان متصلتان ، تختلف الحياة فى إحداهما عنها فى الأخرى اختلافاً عظيماً ، فالأولى مدينـة يسكنها أهل البلاد ، وليسوا جميعاً من المسلمين ، وهى أثر من آثار القرون الخوالى بقى على حاله أو كاد ، أما الأخرى فمدينة أوربية حديثة النشأة مظهرها جديد كل الجدة لا تزال تنمو وتتسع باطراد . القديمة على مسيرة ثلاثة أرباع الميل تقريباً من طرف البركة المسماة ببحيرة تونس ، ترتفع شيئاً فشيئاً من الشرق إلى الغرب حتى تشرف على مغيض من ماء ملح كاد يجف يعرف بـ « سبخة السيجومى » وعلى هذا الجانب خارج أرباض تونس ذروة « المنوبية » ، وفيها مشارف مترامية ، وإلى الجنوب الشرقى من المدينة وفى كنفها هضبة سيدى أبى الحسن وجبل الجلود ، وعلى مسافة أخرى تلال « بيركسة » ، وإلى الشمال هضبتا بلقادير و « رأس الطابية » ووراءهما جبل أحمر وجبل نهيل . ولا تحول هذه المعارج بين تونس و بين سهولة الاتصال بسهل مرناق ووادى نهر مليان من ناحية و بسهل

منوبة ووداى مجردة من ناحية أخرى ، كما يصلها ساحل البحيرة الشمالى بحلق الوادى وقرطاجنة . وحصونها الطبيعية جيدة ولكنها غير منيعة ، فكثيراً ما احتلت تونس بلا كبير عناء ، وصهاريجها تغنى الناس عن جلب ماء الشرب من بعيد . وموقع تونس حسن جداً من الوجهة الاقتصادية ، فهى على المخارج من أواسط سلطنة تونس ، وفى موضع جد خصيب ، قريبة من البحر ، والسواحل الأوربية .

ولسنا فى حاجة إلى أن نقف عند قول كتاب العرب بأن كلمة تونس عربية الأصل . وهم يزعمون أنها مدينة ترشيش التى ورد ذكرها فى الكتاب المقدس . ولم نهتد بعد إلى اشتقاق معقول للاسم ، وقد قيل إن اسم تونس الذى يطلق على المدينة نفسها يرجع إلى العهود البونية إن لم يكن قبل ذلك . وروى ديودورس و بوليبيوس أن تينس بلدة كبيرة شيدت وراء حصون ، ولا شك أنها قامت فى معظمها حول « القصبة » الحالية على مسافة من البحيرة ، وكانت صالحة للملاحة وقتذاك . وقد حاصرها الليبيون وفتحوها ، وهم الذين ثاروا فى مستهل القرن الرابع عشر قبل الميلاد ثم فتحها أجاثو قليس رجولوس . وكانت معسكر الجند المرتزقة الثوار ثم سقطت فى يد سقبيو الإفريقى . ولعل سقبيو الأمليانى هو الذى دمرها .

ويجب ألا نخلط بين تينس التى غدت تونس فيما بعد وبين مدينة أخرى بالاسم نفسه على رأس أدار (بون) تعرف بالبيضاء .٠

ولم يكن لمدينة تونس فى عهود الرومان والوندال والبوزنطيين شأن كبير . وقد وصلها بقرطاجنة طريق رومانى ، ولم يكن يذكر بوجودها سوى إشارات متفرقة فى مصنفات الجغرافيين أو رجال الدين . ولعلها أسطورة من الأساطير أو لعلها حقيقة من حقائق التاريخ قصة حياة القديسة زيتونة التى عاشت أيام الوندال ، والتى يقال إن الجامع الكبير وهو جامع الزيتونة سمى باسمها ، وإن الملك مارتين صاحب أرغون طالب بجثمانها عام ١٤٠٢ م

وكان الفتح الإسلامى ، فخرجت مدينة تونس من الظلمات إلى النور فجأة ، وسجلت اسمها فى صفحات التاريخ بوصفها المدينة الإسلامية التى ورثت بعض مفاخر قرطاجنة ، ثم سرعان ما أخذت تنافس مدينة القيروان. فما استولى حسان بن النعمان عام ٦٩٨ م على قرطاجنة ، العاصمة القديمة ودمرها حتى بادر إلى البليدة القائمة عند نهاية البحيرة وأخذ يحولها إلى قاعدة بحرية تقلع منها الأساطيل فى سفرات نائية ، ويحتمى فيها من مباغتة الروم . وشيد فى تونس « دار الصناعة » ، وقيل إنه جلب من مصر ألف أسرة قبطية تزود هذه الدار بمهرة الصناع . ولسنا نعرف عن المدينة نفسها فى هذه الفترة شيئاً محققاً ، وكل الذى نستطيع أن نتبينه ظنون يشوبها الإبهام عن أصل مختلف الشعوب التى نزحت إليها : فالذى لا شك فيه أنه نزلها أولا تجار وعمال نصارى ، ثم أخذ سكانها يتضاعفون بمن أسلم من أهلها ، ومن انضم إليهم من الجند العرب ، وكانوا غلاظاً مشاغبين ذوى طمع . والمسجد الجامع هو أول بناء إسلامى بحق شيد للعبادة ، وقد ظل



مدخل مسجد الزيتونة بمدينة تونس

قبلة أهل المدينة قرونا ، وفى رواية أن الذى شيده هو ابن الحبحاب عامل بنى أمية وهو الذى جدد كذلك دار الصناعة . ولكننا لا نعرف من الذى شيد الأسوار . وصفوة القول أن تونس لم تكن كالقيروان فى انتظام نشأتها ، فقد نمت فجأة ، وتبدلت حياتها السياسية والدينية والاجتماعية تبدلا عظيم الخطر وتهيأت لشأنها الجديد الذى أملته الظروف و إرادة فاتحها البعيد النظر ، ولعل ذلك لم يكن طفرة كما يتبادر لأول وهلة بل تم على مراحل .

وأخذت مدينة تونس تتوسع فى تجارتها إبان القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ، ولكنها كانت مع ذلك مشهورة بصفة خاصة بتدريس الفقه وعلوم الدين ، فكان فيها قبل أن يرتفع صيت القيروان ، علماء مبرزون ساهموا بدروسهم فى نشر الإسلام بين ربوع البلاد : منهم المحدثان على ابن زياد وعباس بن الوليد الفارسى . وقد صنف أبو العرب التميمى فى مستهل العهد الفاطمى رسالة نافعة فى طبقات هؤلاء العلماء التونسيين الأول . وقد أضيفت إلى المسجد الجامع بنايات دعت الضرورة إليها كما زين بوسائل شتى . وقد أدخل على هذا المسجد تعديلات هامة لا شك أنها من عمل أحمد الأغلبى البناء العظيم . ومهما يكن من شىء فقد كان من اليسير جلب الحجر والمرمر إلى تونس لتشييد المبانى دينية أو غير دينية ، ذلك أن قرطاجنة كانت قريبة ، فما أيسر أن تنهب خرائبها وتهيىء الكثير من مواد البناء والعمد وتيجانها .

أما من الناحية السياسية فيظهر أن تونس كانت مجمع المعارضة ومركز مناهضة السلطان المنبعث من القيروان. وكان الجند من بنى تميم الذين تضمهم أسوارها مبعث القلاقل والفتن. واشتركت تونس فى جميع الفتن التى أخمدها عمال الأمويين والعباسيين ثم أمراء الأغالبة، واشتركت فى الثورة الكبيرة التى حمل لواءها منصور الطنبذى، ففتحها زيادة الله الأول عنوة وضرب أسوارها عام ٢١٨ هـ الموافق ٨٣٣ م، وأنزل بها إبراهيم الثانى جام غضبه بعد فتنة من هذه الفتن، ورأى أن يضبط أمورها بنقل بلاطه وقصبة حكومته إليها عام ٢٨١ هـ الموافق ٨٩٤ م؛ وشيد لهذا الغرض عدداً من المبانى منها « القصبة » ولكنه قفل راجعاً إلى رقادة بعد عامين اثنين، وقتل ابنه عبد الله الثانى عام ٢٩٠ هـ الموافق ٩٠٣ م فى قصر بناه لنفسه وشيكا، وصلب قاتلاه الأول على باب الجزيرة والثانى على باب القيروان. ولم تكن الأسباب قد تهيأت بعد لكى تصبح تونس قصبة إفريقية.

وتعمد الفاطميون وخلفاؤهم من صنهاجة إهمال مدينة تونس، وكانت قصبتهم فى القيروان أو فى المهدية التى أنشئوها. وظل أهلها متمسكين بأهداب السنة. ومما له دلالته الكبيرة أن أعظم أولياء تونس، قد عاش فى النصف الأول من القرن العاشر الميلادى، أى فى الوقت الذى اقتتل فيه أولو الأمر من الشيعة والثوار من الخوارج أعنف قتال فى سبيل الغلبة على إفريقية؛ هذا الولى هو سيدى محرز الذى سأل ابن أبى زيد تأليف رسالته الشهيرة وتلقاها، وهى الخلاصة المعتمدة للمذهب المالكى فى شمال

إفريقية : وكان هو الذى أنزل السكينة على قلوب أهل المدينة بعد أن مرت بها تلك الفترة الوجيزة المشئومة التى احتل فيها أبو يزيد المدينة عام ٣٣٢ هـ الموافق ٩٤٤م وحثهم على إقامة سور مكين حولها وشجعهم على تنظيم أسباب الاتجار فيما بينهم . ولعل الفضل يعود إليه فى بناء فندق « الجرائرية » القديم ، وهو قبالة زاويته تقريبا وعلى مسافة قصيرة من باب كبير من أبواب المدينة ، وربما صح هذا على « السويقة » التى سمى الباب باسمها فقيل « باب السويقة » ، وثمة رواية متواترة تذهب إلى أن سيدى محرز أنشأ أيضاً « حارة اليهود » وهى على مسافة من زاويته من اتجاه المسجد الجامع ، وجلى أنه قصد بهذا العمل إلى أن يستبقى من ذلك الحى قوما يحذقون التجارة خاصة ، وهى من أسباب ازدهار المدينة .

وقد شهد ابن حوقل فى القرن العاشر الميلادى بما كانت عليه مدينة تونس من ازدهار ، فأطنب فى الإشادة بوفرة غلاتها وحسن موقعها وثراء أهلها ، وخص بالذكر فخارها ورى البساتين التى حولها بطواحين الماء . وزاد البكرى تفاصيلى أخرى من القرن التالى فذكر الأسوار والخندق والأبواب الخمسة وهى باب الجزيرة فى الجنوب ، وباب البحر الذى يفتح على الفرضة وباب قرطاجنة فى الشرق ، وباب السقائين ، وجلى أنه كباب السويقة فى الشمال ، وباب أرطه فى الغرب ؛ وكان مدخل الفرضة يغلق بسلسلة ، يحميها من الشمال سور ومن الجنوب حصن من الحجر يعرف بـ « قصر السلسلة » . وقد أعجب البكرى بأسواقها العامرة وحماماتها وبالمسجد الجامع

وكان درج مدخله كما هو الآن اثنتى عشرة درجة ، وأشاد بكثرة زادها من الفاكهة والسمك ولم يفته أن يذكر فخارها . ثم انتقل إلى موضوع آخر فتحدث عن إقبال أهل تونس على علوم الفقه .

والظاهر أن تونس كانت فى أمن ورخاء حتى وقعت الواقعة المشئومة فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى فقلبت الحالة الاقتصادية والسياسية بأسرها رأساً على عقب ، ونعنى بهذه الواقعة غزوة العرب الهلالية .

وغلب الفاتحون الجدد ، الزيرية الضعفاء على أمرهم فاعتكفوا فى المهدية ووقعت تونس زماناً فى يد عابد بن أبى الغيث أمير بنى رياح عام ٤٤٦ هـ الموافق ١٠٥٤ م ، ثم طلبت الأمن فدخلت فى طاعة الناصر الحمادى صاحب القلعة فأرسل إليها عامله عبد الحق بن خراسان الصنهاجي عام ٤٥١ هـ الموافق ١٠٥٩ م وسرعان ما جاهر هذا العامل باستقلاله فتأسست بذلك أول دولة تونسية ، ومكنت هــذه الدولة لنفسها قرناً من الزمان إلا عشرين عاما حتى غزاها الموحدون بعد ذلك بقرن على التحقيق .

وجار عليها أول الأمر الرياحية من بنى على ، وكانوا قد وطدوا أقدامهم فى المعلقة من أعمال قرطاجنة فصالحتهم تونس لتأمن غاراتهم ووعدوا بألا يتعرضوا للناحية أو لأحد من أهلها نظير جزية سنوية ، بل إنهم سرعان ما حضروا أسواق تونس للبيع والشراء جميعاً . وسلمت المدينة من سعايات زيزية المهدية ونورمان صقلية ، وعكر صفوها فى الوقت نفسه شبوب الفتن والأحزاب المتنافسة وشغب الصف واقتتالهم والتنابذ بين

الأحياء المختلفة ، ومع ذلك فقد بدأت تجارتها فى البحر تنفق فى هذا العهد المضطرب ، فانتظمت تجارتها مع إيطاليا ونمت ، وازدادت العلاقات التجارية مع النصارى فأدى ذلك إلى رخاء لم يكن فى الحسبان . وقد كان لبنى خراسان أنفسهم نصيب كبير فى ترقية مدينة تونس وازدهارها ، فحصنها أحمد ، وهو أعظم أمرائهم ، فى النصف الأول من القرن الثانى عشر وبنى الأسوار التى ذكرها الإدريسى . كما أنه هو الذى شيد « القصر » ، وربما كان المسجد المعروف الآن بجامع القصر متصلا به فى أول الأمر . وفى هـذا الحى بالقرب من شارع بنو كريسان ، والظاهر أنه تحريف خراسان ، لا تزال مقبرة بنى خراسان قائمة إلى الآن ، ولعلها كانت متصلة فى الأصل بمقبرة السلسلة . والباب الكبير للمسجد الجامع من أيام هذه الدولة . وتحددت هيأة تونس الآن عندما قامت ضاحيتاها الكبيرتان ، باب سويقة وباب الجزيرة ، وهما يمتدان شمالى المدينة القديمة وجنوبيها . وأخذ شأنها يعظم حتى أصبحت قصبة إفريقية . وقد ظل هذا حالها من أيام عبد المؤمن عام ٥٥٤ هـ الموافق ١١٥٩ م إلى وقتنا هـذا ، فاندمج تاريخها السياسى فى تاريخ سلطنة تونس .

وقد أفزعت الناس غارات ابن عبد الكريم الرغراغى الفاشلة عام ٥٩٥ هـ الموافق ١١٩٩م كما شق عليهم حكم آخر المرابطين يحيى بن غانية عام ١٢٠٣ — ١٢٠٤ ، فكان من نصيب الحفصيين أن يعيدوا إلى تونس أمنها وسلامتها ، وأن يزيدوا فى منشآتها ، وأن يجعلوا منها قصبة جديرة

باسمها . وقد شيد أبو محمد بن أبى حفص ، وكان لا يزال يحكم البلاد من قبل خليفة مراكش فى حى باب السويقة (فى شارع الحلفاويين) مسجداً جامعاً ، يعرف باسمه إلى الآن ، وإن كان هذا الاسم قد حرف بطبيعة الحال حتى أصبح « باى محمد » . وكان أبو زكريا أول أمراء هذه الدولة المستقلين ، وتدل منشآته على أن المدينة بدأت تدخل فى عهد جديد . فقد شيد عام ١٢٣٠م خارج المدينة ناحية الجنوب الغربى مصلاه الحصين المعروف بـ « جامع السلطان » ، وهو الذى أشار إليه ابن بطوطه فى القرن التالى ، ثم شرع فى تعمير القصبة ، وأقام فى طرفها مسجداً خاصاً به هو مسجد الموحدين أو القصبة ، ومئذنته على النمط الموحدى الخالص . وأنشأ خزانة كتب بدها ابن اللحيانى أحد خلفائه واقتفى أثر المشارقة ففتح فى تونس مدرسة الشماعية بالقرب من سوق الشماعين القديم ، وهو الآن سوق البلغجية ، وقد رممت فيما بعد وكانت أول مدرسة فتحت فى شمالى إفريقية . وأبو زكريا هذا هو الذى أجار بنات يحيى بن غانية الثلاث فى القصر الذى عرف منذ ذلك بـ « قصر البنات » . ثم إنه هو الذى نظم الأسواق حول المسجد الجامع مباشرة وفتح سوق العطارين ، وربما كان هو الذى أنشأ كذلك سوق القماش .

وجاء بعده ابنه الخليفة المستنصر بالله فلم يقتف أثر أبيه فى العناية بشئون التجارة والدين ؛ بل كان رجلاً تياهاً يميل إلى الأبهة والبذخ . فبنى قاعة لمحافله تعرف بـ « قبة أساراك » عام ١٢٥٣ م فى قصر القصبة ،

وغرس حدائق للهوه فى الربض المجاور له عند رأس الطابية على الطريق إلى باردو عند أبى فهر . ووصل القاعة بالبساتين طريق محجوب تسير فيه النساء فلا يراهن أحد . وفى عام ٦٦٥ هـ الموافق ١٢٦٧ م أتم الخليفة تعمير جسور قرطاجنة المعلقة القديمة المعروفة بالحنايا فأشاد ابن حازم بهذا الصنيع فى شعره ؛ وجلب الماء إلى بركة أبى فهر الكبيرة ، ومنها إلى المسجد الجامع .

وبنت أمه عطف ، وكانت أرملة فاضلة لزوج تقى ، مدرسة أخرى هى المدرسة التوفيقية الملحقة بجامع التوفيق أو جامع الهوى الذى يرجع تاريخه إلى هذا العهد . وقد بنى الحفصيون فى القرن الأول من حكمهم مسجدين آخرين هما : جامع الزيتونة البرانى (عام ١٢٨٣م) خارج باب البحر ، وقد شيد بأمر أبى الفضل ليحل محل الفندق الذى كانت تباع الخمر فيه ، وجامع الحِلَق فى الحى نفسه عند المصلى . وبنى أبو زكريا ابن السلطان أبى إسحاق مدرسة ثالثة هى مدرسة المعرض فى سوق الكتبيين — وقد بنيت أيضاً لتحل محل فندق يؤمه شاربو الخمر — ولكنها زالت من الوجود وأصبحت أثراً بعد عين ، ثم عمرت الأسوار أو بعضها على الأقل ، ومنها الباب الجديد وباب المنارة وربما بنى معها باب البنات ، وليس له الآن وجود .

وأصبحت تونس عام ١٣٠٠ قريبة الشبه جداً بتونس الحالية . فقد امتدت المدينة من الشمال إلى الجنوب وكانت تنحصر بين القصبة من ناحية

الغرب — وهى قصر الأمير الحصين الذى يشرف على المدينة وعلى سهل المنوبة — وبين باب البحر من ناحية الشرق عند أسفل السهل، وهذا الباب يفتح على دار الصناعة ومنها إلى البحيرة. وفى منتصف هذا المرقى، وفى سرة المدينة بالضبط المسجد الكبير وتفتح أبوابه على الأسواق الجديدة المحيطة به. وقد عرف الباب الشمالى بباب البهور. ونحن نتساءل أكان اسم الباب الغربى باب الشفاء؟ وكانت كل سوق تغلق أبوابها إذا جاء الليل، ولا يزال هذا شأنها إلى اليوم، وباب الربع القريب من السوق الذى يعرف بهذا الاسم هو المخرج الجنوبى لهذا الحى كما هى الحال الآن. وقد تجمعت دكاكين بعض أرباب الحرف اليدوية حول المدينة خارج هذه الأبواب، فالصباغون داخل باب الجزيرة، والحدادون عند الباب الجديد، والسروجية عند باب المنارة. وكانت تجاور باب البحر بطبيعة الحال عدة فنادق يتوزعها تجار النصارى، فلما ضاقت بهم هذه البقعة بادروا إلى بناء حى صغير أو ربض خاص بهم خارج الباب، وهو الصورة الأولى للحى الأوربى. وكانت الدور تبنى متلاصقة، لا فسحة بينها ولا رحبة للأسواق والمحافل: ولم تكن بطحاء ابن مردوم سوى مفرق طريق.

أما الأحياء الخارجية، فهى أحدث عهداً وأقل زحاماً. فيها رحبات واسعة يبيع الناس فيها ويشترون. ويحمى كل حى من هذه الأحياء سور خارجى ينتهى عند القصبة، أما أبواب الصف الأول من هذه الحصون فهى فى الحى الجنوبى: باب خالد (ولا شك أنه كان فى الأصل باب المنصور)

فى الغرب ، و باب الجرجانى فى الجنوب ، و باب الفلاّق و باب علاوة(١) فى الجنوب الشرقى ، وفى الحى الشمالى : باب الخضراء فى الشمال الشرقى وباب [أبى] سعدون فى الشمال الغربى وباب الأقواس فى الغرب ، ولعله عين باب العلوج ، وقد ورد ذكره لأول مرة بعد هذا العهد . و إذا أردنا أن نعين مكان ربض العلوج فلا مناص من أن نضعه بجوار الباب الأخير . والعلوج مرتزقة نصارى يدفع لهم سلاطين تونس أعطياتهم .

أما القصبة نفسها ، فإن أحد بابيها يُفتح على الريف وهو باب الغدر ، والآخر على المدينة وهو باب إنتجمى .

و بين باب علاوة و باب الخضراء مجموع من الخنادق تجرى فيها الميازيب فتصب شرقاً فى البحيرة . والمقابر حول المدينة ، وقد لحقت على الأيام بأرباضها ، فلما اتسعت هذه الأرباض خرجت عنها . و إلى الجنوب الغربى الزلاج الرحب و يكاد يكون قائماً بنفسه وهو يخلد ذكر أبى الحسن الشاذلى المتصوف (سيدى بالحسن) ، صاحب الطريقة الشاذلية وقد عاش هناك فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى . وتلاصق باب الجرجانى بجوار مقبرة الهنتاتية أضرحة كثير من « الأولياء » .

وقد اعتزت تونس بالمرابطين الذين لا ينكر سلطانهم السياسى أحد ، مثل أبى محمد المرجانى مؤدب أبى عصيدة الذى أصبح خليفة فيما بعد . ولها أن تفاخر أكثر من ذلك بمن أخرجتهم من الفقهاء والأدباء والعلماء الذين

(١) فى لغة أهل تونس باب علبوة .

ازداد عددهم على الأيام . وقد ازدهرت بها علوم الدين كما قال العبدرى عام ١٢٨٩م . وممن برزوا فيها القاضى ابن زيتون عند نهاية القرن الثالث عشر الميلادى .

وكانت للمسلمين المهاجرين من الأندلس مشاركة قيمة فى النهوض بدراسة الأدب وفقه المالكية منهم ابن الأبار وقاضى القضاة ابن الغماز ، وقد وفدا من بلنسية ؛ وبنو عصفور من إشبيلية وكذلك بنو خلدون أجداد ابن خلدون مؤرخ شمالى إفريقية الأشهر .

كان القرن الرابع عشر موضع إعجاب الرحالة خالد البلوى فهو العصر الذهبى للفقهاء والمفسرين ومنهم ابن عبد الرفيع وابن عبد السلام وعيسى الغبرينى والقاضى ابن راشد القفصى والمفتى ابن هارون ثم ابن عرفة الإمام الجليل . أما فى ميدان السياسة فإنا لم نأنس فى الحكام إلا ضعفاً وفى المحكومين إلا اضطراباً وخوفاً . فليس أيسر من أن يهدد الأعراب المدينة ، كما احتلها المرينيون مرتين . وكان نموها ناحية الغرب وناحية الجنوب الغربى بالغ القوة فى القرن السابق ثم أعقبه شىء من الخمول . ومع ذلك فنحن نذكر أن مدرستين قد أنشئتا فى هذا العهد ، ابتنت الأولى أخت الخليفة أبى يحيى وتعرف بالمدرسة العنقية (فى شارع عنق الجمل) وبنى الأخرى ابن تافراكين الحاجب (فى شارع سيدى إبراهيم) وقد أصبحت الآن أطلالا . ومن سمات هذا العصر أن المهندسين قد عنوا أولا وقبل كل شىء بما تتطلبه ضرورات الحرب ، فقد عمر أبو الحسن المرينى بعد

هزيمته فى القيروان عام ١٣٤٨م أسوار مدينة تونس واحتفر حولها خندقاً؛ ودعم ابن تافراكين الأسوار الخارجية وأنشأ أحباساً عظيمة لحمايتها.

وكان القرن الخامس عشر فاستقرت أمورها السياسية ونشطت لذلك حركة المبانى نشاطاً ملحوظاً، بيد أنها لم تكن واسعة النطاق. ولم يشيد أبو فارس وحفيده أبو عمر عثمان فى حكمهما الطويل إلا خزانتى كتب ومدارس قليلة، وانصرف جل اهتمامهما إلى أعمال البر، فابتنيا أول مارستان إسلامى فى تونس، وعدة زوايا فى الأرباض يلتجىء إليها الناس فى النهار والليل جميعاً، كما اهتما بما يتصل بالماء مدفوعين إلى ذلك بعامل الدين أيضاً: فأنشآ صهريجاً كبيراً فى المصلى، وميضأة فى سوق العطارين وسقايات ومصاصة، (وهى سبيل يمص فيه الإنسان الماء من صنبور) وأخذ المرابطون وأصحاب الطرق يسيطرون على الدين يوماً بعد يوم. وأبرز رجال هذا العصر سيدى أحمد بن عروس صاحب الطريقة العروسية؛ وسيدى قاسم الجليزى وسيدى منصور ابن جردان.

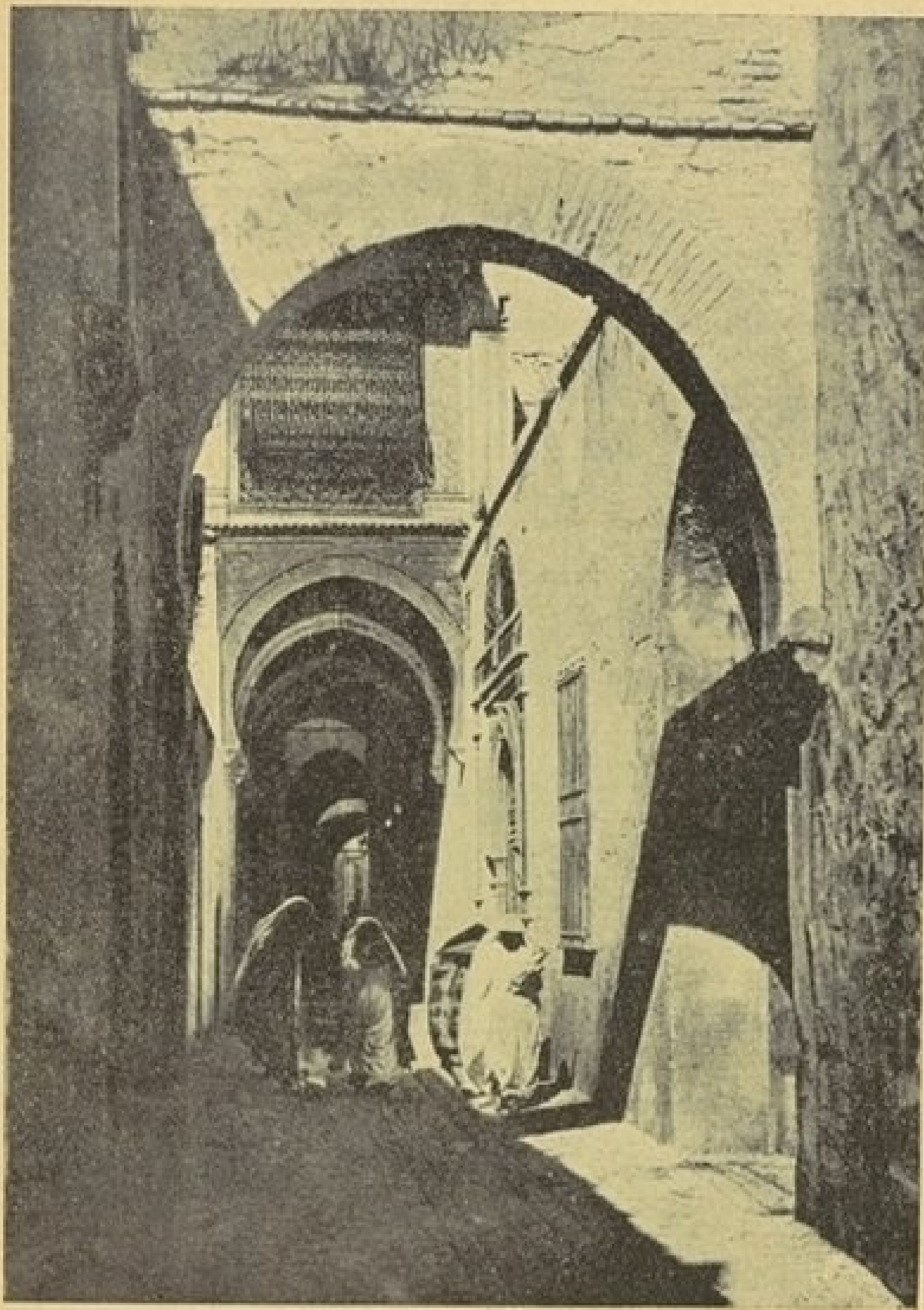
والظاهر أن التجارة كانت آخذة بأسباب الرقى وقتذاك؛ وقد حافظت تونس على اتصالها بأوربة وكانت بها أسواق للزيت والخضر وفحم الحجر وسوق للصفارين (النحاسين) وسوق للعزافين (صانعى السلال). وقد قدر عدد المنازل رسمياً عام ١٣٦١ بسبعة آلاف منزل كما قال ابن الشماع ثم زاد عام ١٥١٦ إلى عشرة آلاف منزل كما قال الحسن بن محمد الوزان الزيانى. وأورد الرحالة ڤان غستيله معلومات قيمة عن حياة النصارى فى

تونس عام ١٤٨٥، أما أولو الأمر فقد انتهجوا سنة أسلافهم وعملوا على الإقامة خارج المدينة، وأغلب ما يكون ذلك فى ضيعتهم باردو . وسرعان ما أصبحت مجموعة كبيرة من المبانى . وينسب إلى أبى عبد الله الحفصى قصر العبدليّة عند المرسى وكذلك خزانة الكتب المعروفة بالاسم نفسه والملحقة بالمسجد الجامع

وكان القرن السادس عشر قرناً يسوده الاضطراب فأصبحت المدينة المنكودة الطالع غرضاً من أهم أغراض الترك والأسبان فى حروبهم الطويلة ، وقد نهبتها جنود خير الدين عام ١٥٣٤ م ثم سلبها جيش شارل الخامس المظفر فى العام الذى يليه . وفر أهلها فى جمع واحد أمام النصارى من باب الفلاق ، وقد غير اسمه تبعاً لذلك فأصبح باب الفلّة (أى باب الهزيمة) . وجلى أن الأحوال التى عمر فيها الحفصيون ما تخرب وصانوه لم تكن جد مواتية لنمو المدينة . فقد صرف الأمراء كل اهتمامهم إلى الحصون التى زيدت عليها حصون حلق الوادى ، ويظهر أنها لم تتم حتى خريف عام ١٥٧٣م عند ما طرد دون جون النمساوى من تونس القائد رمضان الذى ظل عاملاً عليها أربع سنين من قبل على باشا . وقد حصنت القصبة تحصيناً قوياً ، وقام فى مكان دار الصناعة على ساحل البحيرة ، حصن على هيئة النجم يصله بأسوار المدينة متراسان . بيد أن هذا الجهد ذهب أدراج الرياح . وعاث الجند الأسبان فى المدينة فساداً فهجرها الأهلون واستولى الترك فى سبتمبر عام ١٥٧٤ م على هذا الحصن وهدموه . وأقام سنان باشا فى تونس حكماً موطد الأركان ، فأخذت العمارة فى الازدهار بعد ذلك بأمد وجيز .

وزاد خروج الناس من الأندلس واستمر قروناً واتسع مداه فجأة عند ما رحب الداى عثمان بعرب الأندلس الذين طردهم فيليب الثالث . فأقام أهل الحضر منهم فى تونس وسكنوا حيين اثنين هما (شارع الأندلس جنوب غربى « المدينة ») وحومة الأندلس بالقرب من موضع الحلفاويين، وهم الذين أدخلوا صناعة الشاشية (القلانس الحُمْر) . وكان لتونس فى القرن السابع شأن خاص بفضل اجتماع الأندلسيين المسلمين بالترك الحنفية المشارقة ، وقوة المرتدين الفرنجة والقرصان .

وكان الداى يوسف الأول أول من اشتهر بإقامة المنشئات العامة ، كانشاء حى تجارى حول باب البنات وتعمير سوق الغزل المجاور لهذا الحى ، وبناء سوق لتجار جربة وإصلاح عدة أسواق أخرى وتوسيع أسواق الحفصيين ناحية الشمال وهى : سوق البشامقية (وهم صناع السراويل التركية ، شارع سيدى ابن زياد) وسوق البركة لبيع العبيد السودان ، وسوق الترك للخياطين الترك ، وإنشاء قهوة ، ومد مجارى المياه إلى بقاع مختلفة فى المدينة كالمسجد الجامع فيما يلى سوق الترك . وشيد صفيه على ثابت (عام ١٦٢٠م) الميضأة البديعة التى تزين الآن « البلقدير » وعمر على كذلك المسجد الجديد فى ربض باب الجزيرة . وربما كانت إعادة بناء المسجد الشرقى المعروف بباب الجنائز قد حدثت فى ذلك العهد . وابتنى يوسف (عام ١٦٢٢) فى شارع سيدى ابن زياد مدرسة ومسجداً للحنفية مئذنته مثمنة الشكل وإلى جانبه ضريحه . وأخذ سلطان الدايات يتضاءل بعده ، فلم يقوموا بعمل



شارع الأندلس بمدينة تونس

عظيم . وقنع أحمد خوجة بتعمير المدرسة الشماعية والمدرسة العنقية ، وشيد محمد لاز عام ١٦٤٩ م مئذنة القصر العجيبة ؛ فلما توفى عام ١٦٥٣ م شيدت له ولأهل بيته « تربة » فى ميدان القصبة .

وقد شيد البايات المرادية كثيراً من العمائر ، و بنى حمودة مسجد سيدى ابن عروس الحنفى على نمط مسجد الداى يوسف و بالقرب منه ، كما بنى بجواره ضريحاً لأهل بيته . وعمر كذلك منارة المسجد الكبير وشيد مارستانا فى شارع العزافين وشرع فى تعمير الجسر المعلق ، و بنى ولده مراد المدرسة المرادية فى سوق القماش ، وفتح ابنه الثانى سوق الشاشية وأقام حفيده محمد مسجد سيدى محرز بعد عام ١٦٧٥ ، وهو أهم مساجد المدينة . ويقال إن المهندس الفرنسى دفيليه هو الذى رسم خطة قبابه . وكانت القصبة فى أول أمرها مقر الباشوات قبل تقلص سلطانهم ، وكانت تضم بنايتين كبيرتين : فى الأولى حرس الدايات والضباط مع أهلهم ، والثانية وراءها وفيها السقيفة التى يلقى فيها الداى جنده وفى أقصاها مسكنهم. أما الديوان الذى يرأس فيه الأغا المجلس العسكرى فهو قاعة متسعة مستطيلة ولا تزال المحكمة الشرعية فى هذا الموضع . وكان الحى الواقع غربى المدينة وشمال غربيها (وبخاصة طريق الباشا) هو حى السراة أو الحى التركى الصميم وقد زينت بالمرمر دور الدايات الفخمة وغيرهم من الأعيان ، وكانت الرحبة الوسطى — وهى من سمات الدور المألوفة فى ذلك العهد — تزين أحياناً بجوسق أو بركة من الماء ، ولكن الرياش والزخارف كانت فيها نزعة إلى محاكاة الردىء من الفن الإيطالى .

وتوسع القرصان فى مغامراتهم فازداد عدد العبيد من النصارى ومن ثم كثر عدد تلك السجون العجيبة التى ينسب كل منها إلى قديس تنذر له البيعة التى يحتويها السجن . وذكر الأب دان تسعا منذ عام ١٦٣٥ م ، وسرعان ما أصبحت ثلاثة عشر سجناً . وفى أيام جان له فاشيه قنصل فرنسا شيدت أول كنيسة فى دار القنصلية نذرت إلى القديس لويس ، وهو أيضاً الذى أقام على أطلالها كنيسة القديس أنطونيوس فى وسط المقبرة الرومانية الكاثوليكية ، وأقام حولها الأسوار العالية خارج باب البحر (فى موضع الكتدرائية الحالية) ؛ وهو الذى استأذن من الديوان وحصل منه على أرض بنى عليها قنصلية للفرنسيين عرفت بـ « فندق الفرنسيين » وقد تم بناؤها عام ١٦٦١ م . وكان البروتستانت يدفنون خارج باب قرطاجنة فى مقبرة القديس جورج فى الموضع الذى تقوم عليه الآن الكنيسة الانجليزية . ويظهر أن تجار النصارى لم يكونوا كثيرين على الرغم من حماية القنصلية لهم . « فالأمة » الفرنسية لم تكن منذ أمد طويل سوى ستة أشخاص ! وكان غالب التجارة الخارجية فى يد اليهود ومعهم المهاجرون من الأندلس والبرتغال . وقد وفدوا إلى تونس مباشرة أو بطريق إيطاليا ، وكانوا يتميزون عن التوانسة القدماء ، أما الگرانة أو البرتغال فكانوا جماعة منفصلة برأسها ، وإليهم نسب « سوق الگرانة » وكانت مقابر اليهود خارج الأسوار شرقى حى باب السويقة بجوار شارع سيدى سفيان الحالى ؛ ثم امتدت ناحية الجنوب .

وسادت القلاقل السياسية ختام القرن السابع عشر ، وبداية القرن الثامن عشر واحتل إبانها أهل الجزائر تونس مرتين ، وصحبت ذلك فتن

سفكت فيها الدماء . ولم تكن الأسوار من المناعة بحيث ترد هجوماً عنيفاً ولم تتبع فى بنائها قاعدة من قواعد التحصين . بل إن تونس وقعت مرة أخرى تحت رحمة أهل الجزائر ، فى عهد الحسينية ، ونهبها هؤلاء الجزائريون عام ١٧٣٥ م ، فحاول التوانسة عبثاً أن يقفوا فى وجوههم واستعانوا فى ذلك بحصون تعجل على باشا وابنه محمد فى بنائها .

وقد حفلت المدينة فى الفترات التى رفرف عليها السلام ببنايات أخرى ففى أيام رأس الدولة الجديدة حسين بن على توفيت الأميرة عزيزة عثمانه ، عام ١٧١٠م ، وهى كبرى حفيدات الداى عثمان ، ودفنت بالقرب من مدرسة الشماعية . وقد انتفع كثير من منشئات البر والتقوى بجزيل عطاياها . وكان حسين نفسه بنّاء عظيما ، فقد شيد فى الحى الجنوبى من تونس الجامع الجديد أو « جامع الصباغين » وهو الذى اختط الطرق والمبانى الملاصقة لسوق السروجية . وفى عهده شيد ضريح الداى قره مصطفى بجوار مسجد القصر وهو الذى نقل قصبة ملكه إلى باردو . وقد عنى ببناء المدارس كمدرسة النخلة والمدرسة الحسينية والمدرسة الجديدة . وخلفه على باشا ، فنسج على منواله وبنى أربع مدارس هى : الباشية فى سوق الكتبيين والسليمانية وسميت كذلك تخليداً لذكرى ولده المتوفى سليمان ومدرسة بئر الحجار ومدرسة حوانيت عاشور . ثم أنشأ على باى بعد ذلك مدرسة أخرى باسم المدرسة الجديدة وإليه يرجع الفضل فى بناء مقبرة الحسينية المعروفة بـ « تربة الباى » وهى غير بعيدة من مسجد الصباغين وكذلك تكية العجائز الفقراء وقد بنيت



شارع حلفاوين بمدينة تونس

عام ١٧٧٥م . وبنى الوزير المشهور يوسف صاحب الطابع حوالى عام ١٨٠٠م المسجد الذى يحمل اسمه فى ميدان الحلفاويين ولعله أقيم فى موضع « المسجد المعلق على الحلفاويين » كما يتضح من رواقه الخارجي المرتفع ، و بنى فى الحى نفسه نافورة الحلفاويين عام ١٨٠٤ داخل باب سيدى عبد السلام ، و بنى فى الطرف الآخر من المدينة حوضاً كبيراً للماء داخل باب اللواء .

وفرغ مولاه حموده باشا من بناء « دار الباى » فوق القصبة بقليل ، وقد وقف جهده على بناء الحصون والثكنات . ورأى أن يحمى تونس من أهل الجزائر خاصة فطلب من مهندس هولندى أن يعمّر أسوارها الخارجية ولم يكمل هذا العمل من جانبه الجنوبى ، واستغرق من عام ١٧٩٧ م إلى عام ١٨٠٤ م كما يستدل من الكتابات المنقوشة على الأبراج التى تكتنف الأبواب . واستعيض عنها فى هذا الجانب بالمتاريس الأمامية التى بناها على باشا و بجدران المنازل الخارجية التى يتكون منها خط دفاعى متصل . وشيد حمودة فى عام ١٧٩٨ م الثكنات على طول الطريق المجاور لقصره الخلوى البديع فى المنوبية ، وبنى غيرها فى أخريات أيامه عام ١٨١٤ م فى وسط سوق العطارين (وهى تضم الآن دار الكتب العامة ، وإدارة العاديات) . وفى العهد نفسه شيدت ثكنات أخرى فى المدينة . فى شارع القشلة ، أى الثكنة (وهو الآن الجمعية الفرنسية للبر) وشارع الكنيسة (وهو الآن إدارة الأوقاف) وشارع منكوبت وشارع سيدى ابن زياد ، وأكبرها ثكنة الفرقة الأولى (برنجى آلاى) . وقد بناها الباى حسين ابن محمود ثم أخوه مصطفى بالقرب

من المركاض فى موضع المصلى القديمة . وبنى أحمد باى عام ١٨٣٩ مخزناً للمدفعية خارج المدينة ، ويعد أحمد باى خالق « الجيش التونسى » .

وقد قنع بأن يطلب فى مناسبتين (١٧٤٣ و ١٧٤٤ م) سباكا من طولون لإصلاح عدة مدافع فى مصنع للطوارىء . أما حمودة باشا فأنشأ مسبكا دائماً فى جناح من قصر الحفصية يشرف عليه بعض الفرنسيين . ثم نظم أحمد باى الدبدابة التى يصنع فيها الخبز والزيت للجيش . والظاهر أن هذه المشروعات العسكرية ، قد عملت على تحويل تونس إلى حامية عسكرية ، وأخذت المحلة الأوربية فى الوقت نفسه تحتل جانباً من المدينة ، وكانت تنمو نمواً مطرداً لا يعوقها عائق بفضل احتلال الفرنسيين للجزائر عام ١٨٣٠ م والإصلاحات التى قام بها البايات ، ففتح النصارى الدكاكين وشيدت الكنائس ، وفتحت المدرسة الإيطالية فى سولمه عام ١٨٣١ م والمدرسة اليهودية عام ١٨٤٠ م فى مرپرجو ، وكلية بورجاد عام ١٨٤١ . وأصبح حى ميدان البورصة بأسره أوربياً خالصاً (وسمى حديثاً باسم ميدان الكردينال لافيجرى) ، وكذلك الشارع الحالى للديوان القديم وشارع جلاسييه وشارع القومسيون وأخذت المدينة الحديثة تتسع خارج الأسوار متجهة ناحية البحيرة ، ومن ثم نقلت قنصلية فرنسة عام ١٨٦١ م إلى الدار التى يشغلها الآن المقيم العام . ومع هذا فقد بقيت بعض القنصليات داخل المدينة . وهى قنصلية إسبانيا (فى شارع سيدى البونى) وقنصلية بريطانيا العظمى (فى ميدان الكردينال لافجرى) وقنصلية إيطاليا (شارع زركون)

وقوى بأس الأوربيين حتى تأثرت به آخر الأمر إدارة المدينة نفسها .
وكان لكل من الربضين أيام الحفصيين شيخ يقوم عليه ، ولعلهما كانا تحت إشراف شيخ المدينة ، وقد بقى هؤلاء الشيوخ فى عهد الأتراك ، وكانوا يقومون على خفارة المدينة بعد أن تغلق أبوابها ليلا تعاونهم جماعات من السكان تتناوب العمل فيما بينها . ويتبع هؤلاء « المحركون » وهم شيوخ الأحياء . وكانت شرطة النهار أيام الحسينية من عمل الدولتلى ، وكان يقوم بمنصب رئيس البوليس فى القاعة المستطيلة المعروفة بـ « دريبة » فى شارع سيدى ابن عروس . أما القصبة فكانت إدارتها منفصلة تحت إشراف أغا .

ومع ذلك فقد ألف مجلس بلدى عام ١٨٥٨ يضم رئيساً ووكيلا وكاتب سر واثنى عشر عضواً من الأعيان ، وكان يزود بالمال من ضريبة تفرض على الخمر والكحول . وحل محل الدولتلى عام ١٨٦٠م « فريق » يرأس الضبطية . وقد بذل جهد كبير لتساير المدينة العصر ، فمر خط للبرق يصل بينها و بين الجزائر وخط حديدى يصلها بحلق الوادى كما زودت المدينة بالمجارى ، وقام المهندس الفرنسى كولان بجلب الماء إليها من زغوان . وحل برج الماء محل الصهريج المغطى الذى كان قائماً فى القرن السابق بجوار باب سيدى عبد الله .

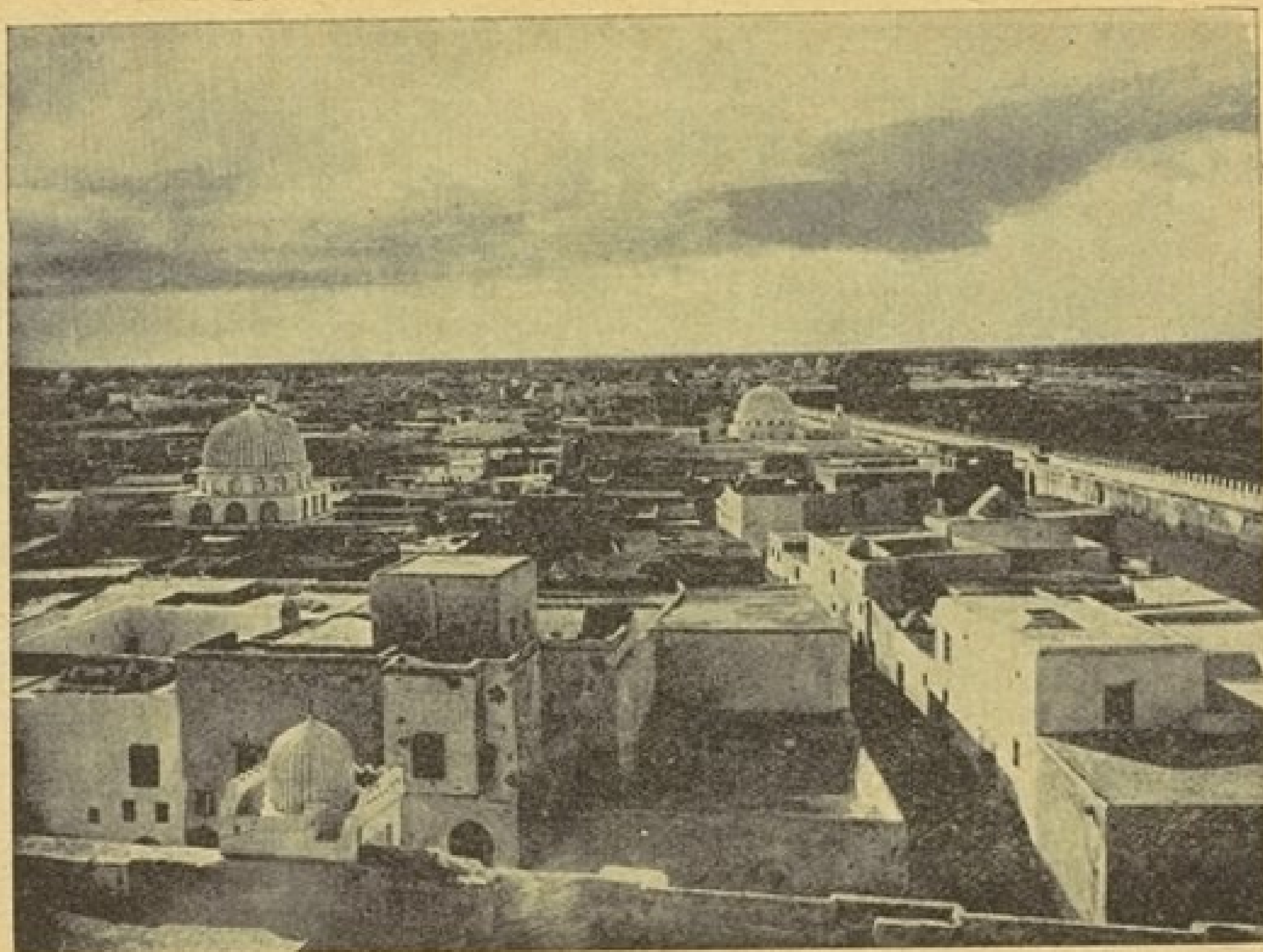
و بنيت من أماكن العبادة زاوية سيدى إبراهيم الرياحى وأنشىء المعهد الصادقى (فى ثكنات شارع الكنيسة) نسبة إلى الباى محمد الصادق . ثم بنى المارستان الصادقى . وكان قصر الزورق هو الذى أقام فيه الدايات أول الأمر (فى شارع القضاة) . وفى عام ١٨٧٦ عمر وزير من وزراء الباى

دار الحسين (وهو الآن قصر الفريق) الذى بنى فى القرن الثامن عشر ، وظل قصر خير الدين ، وهو قصر الحفصية القديم بعد توسيعه مقر المحكمة زماناً فى مستهل أيام الحماية (وهو فى شارع المحكمة) ؛ أما قصر مصطفى ابن إسماعيل فكان فى شارع الباشا ، وأصبح قصر الخازندار مارستان اليهود ، وهو الآن مهجور ، ومما يجدر ملاحظته أنه لما ثار أبناء الحسين فى وجه على باشا فى منتصف القرن السابق ، عنى الباى بحى الحلفاويين الذى كان يسكنه « الحسينية » الموالون له .

وأحدث الاحتلال الفرنسى (من عام ١٨٨١ م) تطورات خطيرة فى تونس وتمتد المدينة الأوربية من باب فرنسا ، وهو باب البحر القديم ، إلى البحيرة حيث الأرصفة والمراسى ؛ ومن البلفدير إلى الجلاز ، ثم تمتد فى الحى الجنوبى داخل الأسوار وخارجها فتغطى روابى مونفليرى ، والسور الخارجي باق إلى اليوم . أما سور المدينة فقد اندثر أو كاد ، ولم يبق منه سوى أبواب قليلة . وعمرت القصبة تعميراً كاملا وهى الآن ثكنات للجند . وتشغل الإدارة الداخلية دار الباى ؛ وتشغل الإدارات الأخرى مع المعهد الصادقى وقصر العدلية بنايات حديثة تمتد على طول شارع البنات من ميدان القصبة . وتسير مركبات الكهرباء (الترام) حول المدينة ، ولكنها لا تجوس خلالها . وقد بذلت الجهود لكى تحتفظ المدينة بطابعها الشرقى . وهناك بنايات تستعمل فى غير ما أنشئت له ، بيد أن المظهر العام للمدينة لا يزال كما كان منذ خمسين سنة ؛ وينحصر التعليم الدينى فى المسجد الكبير ، وقد عمرت

منذ نته تعميراً كاملا عام ١٨٩٤م وأنشأ المقيم الفرنسى مليه المدرسة الخلدونية فى سوق العطارين ليتعلم فيها فتيان المسلمين مبادىء العلوم الحديثة .

ولا تزال الحرف الوطنيـة تتجمع فى الأسواق ، لكل حرفة منها « أمين » ؛ ويزور بعضها كثير من السائحين فتنشط حركة التجارة لأنهم يبتاعون الأدوات « الشرقية » والعطور والبسط والسلع المصنوعة من الجلد ؛ ويصيح المنادون فى سوق الكتبيين وسوق البركة على الكتب والحلى . وقد هجر الحى اليهودى الحقير أهلوه الذين يستطيعون الإقامة بجوار ميدان بوتييه أو فى المدينة الأوربية ، وسوف تقوم عن قريب فى هذا الحى البنايات الحديثة والطرق المتسعة . أما المسلمون فهم على العكس من ذلك يعيشون فى الأحياء الوطنية ، اللهم إلا بعض الأسر الغنية التى ابتنت لها قصوراً ريفية فى آخر طريق باريس . ولا يفوتنا أن ننوه بازدياد سكان الأرباض البعيدة من أوربية وإسلامية ويهودية ، وقد اتصلت فى الواقع واندمجت فى مدينة تونس . وأعيد تنظيم المجلس البلدى بمقتضى المرسوم الصادر فى ٣١ أكتوبر عام ١٨٨٣ وألحق به مرسوماً عام ١٨٨٨ م ، ١٩١٤ م بخصوص المجالس البلدية للولاية ، ويتألف المجلس من رئيس ووكيلين فرنسيين وسبعة عشر عضواً يعينون بمرسوم (ثمانية من الأوربيين وثمانية من المسلمين ويهودى تونسى) . وارتفع عدد سكان مدينة تونس فى تعداد عام (١٩٢٦) ، إلى ١٨٥,٩٩٠ نسمة ، منهم ٢٧,٩٢٢ فرنسياً و ٥١,٢١٤ من الأجناس الأوربية الأخرى و ٨٢,٧٢٩ من المسلمين الوطنيين و ٢٤,١٣١ من اليهود التونسيين .



مدينة القيروان

القيروان

مدينة من أهم مدن تونس على مسيرة مائة واثنى عشر ميلاً جنوبى مدينة تونس وأربعين ميلاً غربى سوسة ويربط بينهما خط حديدى . وهى على خط عرض ٤٠َ ٣٥° شمالاً وخط طول ٢َ ١٠° شرقاً . وقد بلغ عدد سكانها عام ١٩١٠ م اثنين وعشرين ألفاً منهم ثمانمائة من الأجانب بينهم ثلاثمائة من الفرنسيين .

وترتفع القيروان مائتين وخمسين قدماً فوق سطح البحر وهى فى قلب سهل عظيم يخترقه نهر زرود ونهر مرجولل الذى يغيض فى السبخات الملحة. ويفيض هذان النهران فجأة فتستحيل الأرباض إلى بحيرة تضرب مياهها أسوار المدينة . وتكثر غلة الأرض إذا غزر المطر . ويقول البكرى إن الأرض فى الجانب الغربى المعروف بفحص الدّرارة تنبت فى بعض الأحيان مائة ضعف ما يبذر فيها ، ولكنها تبدو بالصحراء أشبه لأن تربتها مغطاة بطبقة ملحية ولا ينبت بها شجر أو عشب . وتتفاوت درجة الحرارة فى القيروان تفاوتاً كبيراً فهى فى الشتاء ٨و٢٤° وفى الصيف ٢و١٢٠° (فهرنهيت) ومطرها ليس بالغزير ، فهو أربع عشرة بوصة فى السنة ، ومن ثم تقل فيها المسايل والعيون فيختزن السكان فى الصهاريج ما يحتاجون إليه من ماء الشرب .

والقيروان فى الواقع مدينتان ، الأصلية منهما محاطة بسور محصن من الآجر له شرفات وأبراج مدوّرة ، وقصبة محيطها ثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمسين ياردة ، ويعقب ذلك ربض متسع يمتد ناحية الشمال والشمال الغربى ويعرف بربض جلاص نسبة إلى قبيلة تسكن المنطقة المجاورة ، وقد نشأ ناحية الجنوب فى العهد الأخير حىّ أور بى صغير . وفى داخل المدينة شبكة من الدروب الضيقة الملتوية ، وفى المدينة نشاط تجارى صناعى مع أنها فقدت كثيراً من مكانتها الاقتصادية ، والصناعة فيها وطنية كصناعة البسط والأغطية الصوفية والنحاس والجلود من سروج وأحذية .

واشتهرت القيروان فيما مضى بما شيد فيها من دور العبادة ، وأهمها مسجد سيدى عقبة الكبير ، وهو من أكبر المبانى فى إفريقية الشمالية وقد بنى مع المدينة نفسها ، ومن المبانى الأخرى مسجد سيدى صاحب ، بنى فى القرن الأول للهجرة وجدد بناؤه ووسع فى القرن السادس عشر للميلاد ، ومسجد الأبواب الثلاثة الذى يعاصر المسجد السابق ومدرسة سيدى عبيد الغريانى التى أنشئت فى القرن السادس عشرة وقد أخذوا مواد البناء لأقدم المساجد من سوسة وقرطاجنة ، ولذلك كان فنها خليطاً عجيباً من الفن البوزنطى والفن الشرقى ، ويتضح أثر الفن الشرقى فى زخارف القيشانى والخشب وهى تماثل ما فى العراق وبغداد ، أما المبانى الأحدث ففيها سقوف خشبية مقسمة وزخارف عربية يظهر فيها أثر أندلسى مغربى ، وفى مبانى القرنين السابع عشر والثامن عشر أثر المهندسين والعمال الفرنجة وبخاصة الطليان منهم .



مسجد القيروان الجامع من الداخل

تاريخها : يرجع تاريخ القيروان إلى الفتح العربى ، أنشأها عقبة ابن نافع سنة خمسين من الهجرة لتكون قاعدة أعماله الحربية ومخزناً لمؤنته وليرهب بها قبائل البربر ، وقد زعموا أن عقبة قال إنه أرادها معسكراً لجند الإسلام إلى آخر الزمان . وقد شيدت القيروان على أنقاض مدينة حمودة أو قمونية الرومانية ، أو بالقرب منها واستعمل العرب أنقاضها فى مبانيهم . واختير موضع المدينة على مسيرة يومين من البحر حماية للمسلمين من الروم الذين ظلت المدن الساحلية بأيديهم . وقد أقام عقبة أول ما أقام ، قواعد مسجده ، فقصراً للحكومة ، ثم منازل لجنده وسوراً طوله ٢٧٥٠ ياردة . وقد روى الناس عن تخطيط المدينة كثيراً من الأساطير ، زعموا أن موضعها كان أدغالا كثيفة تمرح فيها الظباء والحيات ، أمرها عقبة فاختفت واستلهم عقبة من حلم رآه ، مكان القبلة ومحراب المسجد ، وعين ماء لا غناء عنها لجنده . وقد غضب الخليفة عليه فاستدعاه إلى المشرق عام ٥٥ من الهجرة ولما يتم بناء القيروان ، فخربها خلفه دينار أبو المهاجر ، وبنى على ميلين منها مدينة جديدة أسماها تيكروان ، فلما صفح الخليفة عن عقبة وأعاده إلى أفريقية ، جدد بناء مدينته فأصبحت قصبة إفريقية الإسلامية . ومقر ولاتها ، وقد تعرضت المدينة بعد وفاة عقبة لأحداث شتى . واحتلها البربر فى العام الرابع والستين من الهجرة بعد فتنة كسيلة ، وظلت فى أيديهم أربع سنين ، ثم استولى عليها الوفرجومة ونهبوها فى فتنة الخوارج واقترفوا فيها كثيراً من المظالم فتفرق عنها سكانها . وما انقضى الشهر

الرابع عشر حتى جاء أمير هوارة أبو الخطاب الإباضى فطرد الوفرجومة واستعمل على المدينة عبد الرحمن بن رستم سنة إحدى وأربعين ومائة من الهجرة . وبعد أربعة أعوام انتصر ابن الأشعث على الخوارج وأعاد مقر الحكومة إلى القيروان . وقد حاول إصلاح ما أفسده البربر ، وعمل على تحصينها ، فسورها بحائط من الآجر عرضه اثنا عشر ذراعا ، إلا أن ذلك لم يمنع قبائل الإباضية تحت إمرة أبى حاتم من حصار المدينة سنة ١٥٤ هـ ، فحبس بها عاملها عمر بن حفص ، وكان قد فرّ من طبنة ، ثم قتل أثناء الحصار ، وخلفه جميل ويقال حامد بن صقر ، فاستسلم للعدو وفتح له أبواب المدينة وقنع الفاتح بدكّ حصونها . فلم تقع مذابح ، وترك الأهلون وشأنهم . ولم يطل عمر الخوارج بها سوى عام واحد ، استعاد المدينة بعده يزيد ابن حاتم ، فأعاد بناء المسجد الكبير ، وخص كل طائفة بسوق . ثم اتسعت رقعة القيروان وبلغت أوج عزها أيام الأغالبة ، وتنافس أفراد هذه الدولة فى تجميلها بروائع الآثار ، وأكثروا فيها المبانى النافعة .

فمد زيادة الله الأول ، وإبراهيم ، أنابيب الماء ، وأقاما الصهاريج بعد أن أصبحت الأحواض التى بنيت أيام الخليفة هشام ، لا تفى بحاجة الناس. ولم تندثر هذه الأحواض ، فقد رمم الفرنسيون أحدها ولا يزال يعرف بحوض الأغالبة . أما المسجد الجامع فقد بنى من جديد ، وكان مسجداً متواضعاً بناه عقبة ، فهدمه حسن بن النعمان ، ثم أعاد بناءه وزينه بأعمدة من الرخام ، جلبت من أطلال قرطاجنة وسرعان ما ضاق المسجد بالمصلين ،

فوسع عام ١٠٥ من الهجرة ثم جدد يزيد بن حاتم بناءه كله ، ماعدا المحراب ، ثم نقض زيادة الله الأول المسجد والمحراب جميعاً ، وأقام مكانه المسجد الحالى . ويقول البكرى إن تكاليف البناء بلغت ثمانين ألف مثقال من الذهب وأتم إبراهيم بن أحمد عمل زيادة الله ، فمدّ البناء الرئيسى وابتنى فوق الصحن المتصل بالمحراب ، قبة تسمى قبة باب البهو ، طولها مائتان وعشرون ذراعاً ، وعرضها مائة وخمسون ، ويقسمها أربعمائة وأربعة عشر عموداً إلى سبعة عشر صحناً ، وأصبح المسجد الكبير يضارع أشهر آثار الشرق . وعمرت فى هذا العهد دور أخرى للعبادة ، كمسجد الأبواب الثلاثة ، ومسجد سيدى صاحب (مسجد البربر) ، ومسجد الأنصار ، وقد زعموا أن هذا المسجد بناه قبل دخول عقبة ، الصحابى رويفع بن ثابت .

وشيدت خارج المدينة مساكن الأمراء ، كرقادة والقصر القديم ، ويعرف أيضاً بالعباسية ، بناه إبراهيم بن الأغلب سنة ١٨٤ هـ ، على ثلاثة أميال شمال شرقى القيروان ، وجعله قصبة الإمارة ، وأقام فيه مع حراسه الزنوج ، ونشأت حول القصر مدينة مزودة بالحمامات والنزل والأسواق ، يحيط بها سور ذو خمسة أبواب . وعلى ميسرة منها قلعة تعرف بالرصافة . أما رقادة فكانت على أربعة أميال ناحية الجنوب الغربى وهى من آثار إبراهيم بن أحمد ، الذى اختار مكاناً عرف بطيب هوائه ، وبنى فيه قلعة ، نشأت حولها مدينة هامة ، ذات أسواق وحمامات ، وبها بساتين وحدائق واسعة ، ومحيطها أربعة وعشرون ألف ذراع .



شارع من شوارع القيروان

وكانت مدينة القيروان سوقاً تجارية كبيرة ، كما كانت مزاراً مكرماً وقصبة دولة قوية . اصطفت فيها حوانيت التجار على جانبي طريق مسقوف طوله نحو ميلين . وكانت مدينة علم ، للمالكية فيها حظوة ، وكثر فيها تلاميذ علماء أجلاء كأسد بن الفرات وابن رشيد وسحنون . وازدهرت فيها دراسة الطب وأنشأ فيها مدرسة نظامية ، اسحق بن عمران اليهودى ، طبيب الأمير زيادة الله الثانى ، وتلميذه اسحق بن سليمان .

وزال حكم الأغالبة ، وظلت القيروان على عزها القديم أيام الفاطميين وأوائل الزيرية ، رغم أن المهدى عبيد الله نقل مقر الحكومة إلى المهدية .

وقد لقيت المدينة ألواناً من البلاء إبان فتنة أبى يزيد . وفى عام ٣٣٣ هـ استولى عليها النكارية ونهبوها ، غير حافلين بتوسل الأعيان والعلماء الذين قدموا يناشدون الفاتحين رحمتهم . ثم استعادها الخليفة سنة ٣٣٤ ، فبنى على مسافة منها مدينة صبرة ، التى أسماها المنصورية ، إشارة إلى انتصاره على أبى يزيد ، واتخذها عام ٣٣٧ مقراً له . ثم جاء خلفه المعز ، فنقل إليها أسواق القيروان ومصانعها رغم تذمر الأهالى الشديد . وأقيم حول المدينة الجديدة سور له خمسة أبواب ، أهمها باب الفتوح يخرج منه الأمير إلى الحرب على رأس جنده . ولكن رقادة طمست معالمها بعد أن هجرها أهلوها وخربها النكارية فلم يبق منها غير حدائقها . ونفقت تجارة القيروان والمنصورية طوال هذا العصر ، فازدهرت فيهما صناعة البسط والمنسوجات القطنية والصوفية وامتدت حول المدينة مزارع وحدائق . وزادت ثروة

الأهالى حتى إن عمال الفاطمية استطاعوا غصب أربعمائة ألف دينار منهم دفعة واحدة . ويروى البكرى أن المكوس التى تجبى يومياً عند باب من أبواب المنصورية كانت تبلغ ستة وعشرين ألف درهم . وشكا أهل القيروان ظلم الفاطميين ، وظل جمهورهم على مذهب أهل السنة ، وتجلى سخطهم فى معارك دموية وقعت أوائل عهد الزيرية ، وفى عام ٤٠٧ هـ ، شبت فتنة قتل فيها ثلاثة آلاف شيعى ، ونهبت العامة مدينة المنصورية . وقابل أهل القيروان خلاف المعز مع الفاطميين بالترحاب .

وأدت هذه الفتن إلى فتح الهلالية إفريقية ، فلقيت منه القيروان بلاء شديداً . فقد أمر المعز جنوده باخلاء المدينة بعد هزيمة حيدران ، فنهبوها قبل انسحابهم إلى المنصورية : ثم أعاد بناء أسوار القيروان فبلغ طولها ٢٢ ألف ذراع ، وأحاط المدينتين بسورين بينهما نصف ميل ، ورغم كل هذه التحوطات ، اشتد هجوم الهلالية وازداد عنفاً ، فهجر القيروان فريق من أهلها وعزم المعز على الجلاء عن المنصورية والتراجع إلى المهدية ، فدخل العرب القيروان وأذاقوها العذاب . محوا كل ما فيها من جمال وجلال ، ولم ينج من شرهم شىء من ذخائر أمراء صنهاجة ، وعاثوا فى المدينة سلباً وتدميراً وتفرق الأهلون أيدى سبأ ، فذهب بعضهم إلى مصر ، وهاجر آخرون إلى صقلية والأندلس ، ورحل رهط كبير إلى فاس .

ولم تفق قصبة إفريقية من هذا البلاء ، فقد نهبها الهوارة مرة أخرى سنة ١٠٦٠ م ، وتنازعها الزيرية والقائد ابن ميمون ، الذى حاول أن يقيم

فيها إمارة مستقلة لنفسه ، مستعينا ببنى حماد ، وظلت على الرغم من هذا فى يد العرب ، عزلاء لا تدفع عادية البدو . وفرض هؤلاء المكوس على كل شىء ، وأصبح أهلوها قلة ، ساءت صنائعهم وكسدت تجارتهم ، وعمر عبد المؤمن جانباً منها ، ولكنها سارت فى طريق الاضمحلال مسرعة الخطى أيام خلفائه والحفصية من بعدهم ، وكادت تقفر المدينة فى نهاية القرن الرابع عشر الميلادى ، ولم يعد يسكنها سوى من لجأ إليها من الفلاحين . وأخذ عدد سكانها فى الزيادة أوائل القرن السادس عشر ، ولكنها ظلت على بؤسها . وجار أمراء تونس على أهل القيروان ، فلم تهدأ لهم ثورة ، بل نفضوا عن كواهلهم حكم الحفصية عند ما قبل هؤلاء حماية الاسبان وأمّروا عليهم سيدى عرفة الشبى . ولم يستطع مولاى حسن — رغم مساعدة الأسبان — التخلص من هذا الأمير الذى عضدته قبائل العرب وأتراك القرصان درغوث .

ونزل بالقيروان إبان الحكم التركى ما نزل بغيرها من النكبات ، وأراد الباى مراد عام ١٧٠١ عقاب أهلها على فتنهم فخرب الأسوار والدور ولم يبق فيها إلا المساجد والزوايا ، بينما بذل حسين بن على مؤسس الدولة الحسينية جهوداً عظيمة لتعمير القيروان ، فجدد السور الحصين وعمر أكثر من خمسين مسجداً ، وشيد لنفسه قصراً يقيم فيه إذا خرج رجاله إلى الجريد ، لجباية المكوس . وعطف الأهلون على الباى ونصروه على ابن أخيه على باشا ، الذى لم يستطع الاستيلاء على القيروان إلا بعد حصار دام خمسة

أعوام . وهدمها الأمير الظافر مرة أخرى ، ثم أعيد بناؤها فكانت عام ١٧٨٤ أعظم مدينة بعد تونس ، بل كانت أفخم منها بناء ، وأنظف طرقا .

ونشطت فيها التجارة والصناعة ، وأعفى أهلها من الضرائب لولاء آبائهم للباى حسين ، واحتفظت القيروان بحرمتها الدينية وظل سكانها على عدائهم للنصارى .

ولما أبرمت معاهدة باردو عام ١٨٨١ م التى جعلت تونس تحت الحماية الفرنسية ، ظلت القيروان معقلا من معاقل الحركة الوطنية ، فسيرت لها فرنسا ثلاثة جيوش تحت قيادة الجنرال سوسييه ، زحفت من تبسة ، وتونس ، وسوسة ، وتلاقت أمام أسوار المدينة فاحتلتها بلا قتال فى التاسع والعشرين من أكتوبر عام ١٨٨١ م .

المهـــدية

مدينة على ساحل تونس الشرقى كان المؤرخون الفرنجة فى العصور الوسطى يسمونها مدينة افريقية . وقد بنيت بين سوسه وسفاقس فى شبه جزيرة صغيرة ينتهى عندها رأس إفريقية ويصلها باليابسة برزخ ضيق كما يتصل الكف بالمعصم وكان فى موضع المدينة دون شك محلة فينيقية وقرية رومانية . وقد سميت بالمهدية نسبة إلى المهدى عبيد الله الشيعى الذى أسسها وحصنها سنة ثلاثمائة من الهجرة ، بعد أن قرأ الطالع وأنبأ بالأخطار التى قد تهدد الفاطميين . وكان بها سور من الحجارة الصغيرة يمتد ناحية الجنوب على طول الشاطئ ، ولا تزال منه أبراج قليلة باقية إلى اليوم . وكان السور يحمى الميناء ، وهو ثغر فينيقى قديم اكتشف بين الصخور تدخل إليه السفن من باب كبير على جانبيه حصنان منيعان . وعلى مسافة قليلة دار الصناعة البحرية ، وكان السور منيعاً محصناً بأبراج مدورة ومربعة وأمامه من جانب البرزخ حائط يخترقه باب لا يزال إلى الآن قائماً وبأعلى موضع فى شبه الجزيرة قصبة تركية قديمة ربما بنيت مكان قصر المهدى ولعل قصر ابنه القائم كان أمامها ناحية الغرب . ومن آثار الفاطميين بالمدينة كذلك مسجد كبير بنى بالقرب من البحر لا تزال آثاره باقية إلى الآن . وبجواره دار المحاسبات ووراء شبه الجزيرة ضاحية زويلة

وموضعها معروف إلى اليوم ، وقد اكتشفت عندها مخلفات قديمة من بينها آثار من الزجاج .

وبعد أن ترك المهدى رقادة القريبة من القيروان ذهب سنة ٣٠٨ ﻫ ليقيم بالمهدية . وازدهرت المدينة لما صارت قصبة الدولة وأصبحت كما يقول ابن عذارى أعظم مدينـة فى بلاد المغرب . وقد خرج من توزر أبو يزيد أحد ثوار الخوارج وأصبح سيداً على بلاد إفريقية بأسرها ، وظل يحاصر المهدية خمسة أشهر وبها القائم بن عبد الله ، وانتهى الحصار بالفشل فكان ذلك إيذاناً بزوال دولة الخارجي . وكان الفاطميون يلجأون إلى المهدية إذا أحدقت بهم الأخطار ، كذلك كانت بعد قرن من الزمن ملجأ أفراد الزيرية عند ما ذهبت بملكهم غزوة الهلاليـة . وحدث عام ٤٤٩ ﻫ أن المعز الزيرى هجر القيروان إلى المهدية ومنها خرج وخلفاؤه بعده ينشدون إعادة دولتهم ، وكذلك جعلوها قاعدة لغاراتهم البحرية .

وفى المهدية تهيأت الأسباب للقرصان فكانت أمنع معقل للقرصنة التونسية ، وهكذا ظلت إلى الزمن الحديث . وأغار على المدينة أهل صقلية وبيزة وجنوة رداً لغارات القراصنة المسلمين . وفى عام ١٠٨٧ م سقطت المدينة فى يد القوات المسيحية المتحالفة واستولى عليها النورمان مرة أخرى سنة ١١٤٨ م ثم حوصروا فيها براً وبحراً حين فتح عبد المؤمن الموحدى إفريقية وعادت المدينة إلى قبضة المسلمين . ولكن النورمان استولوا عليها مرة أخرى ونهبوها . ثم عقدت معاهدة صلح مع وليم الثانى ملك صقلية

واستطاع النورمان الاتجار معهما . وأتى عهد بنى غانية أمراء المرابطين فاستولى على المدينة مغامر ادعى الخلافة اسمه عبد الكريم الرغراغى وأدت هذه الفتن إلى استعمال أحد الموحدين من بنى حفص على إفريقية ومن ثم أصبحت المهدية إحدى حواضر المهديين ، وكان يعهد بحكمها فى الغالب إلى أحد أبناء سلطان تونس . وأدى نشاط القرصنة المستمر إلى قيام حملة من چنوه سنة ١٣٩٠ م يؤيدها شارل السادس ملك فرنسا الذى سير إليها أسطوله وفرسانه . وقاومت المهدية ولكنها أجبرت على دفع الجزية للنصارى . ولما غزا شارل الخامس تونس احتلت المدينة حامية اسبانية . وفى العام التالى استولى عليها القرصان درغوث ثم أسره أسطول أندريا دوريا ولكنه أطلق سراحه فعاد إلى المدينة وثبت قدمه فيها . وفى سنة ١٥٥٠ م حاصر دوريا المدينة حصاراً مشهوراً وانتزعها من درغوث وعهد شارل الخامس بأمرها إلى فرسان مالطة فأبوا ، وبعد قليل عادت المهدية إلى سلطان المسلمين ونهضت من كبوتها وظلت تحت الحكم التركى إلى القرن التاسع عشر وكراً للقرصنة ومثاراً للرعب فى قلوب تجار النصارى وبقيت كذلك تسعمائة عام .

وهى الآن بلدة صغيرة يسكنها حوالى عشرة آلاف نسمة يرتزقون من صيد السمك وعصر الزيوت ؟

بنزرت

مدينة على الشاطىء الشمالى لبلاد تونس ، تبعد أربعين ميلا ناحية الشمال الغربى من مدينة تونس . وبنزرت على خط طول ٥٣َ ٩° شرقى جرينوتش وخط عرض ١٧َ ٣٧° شمالا .

وسكانها خمسة وثلاثون ألف نسمة ، وهى بين البحر وبين بحيرة متوغلة فى البلاد إلى مسافة أحد عشر ميلا تبلغ مساحتها ٣٥ ميلا مربعاً .

وموقع بنزرت يسيطر على المضيق بين صقلية والشاطىء الإفريقى ، ومن ثم أصبح له شأن عظيم من الناحية الحربية .

وبنزرت فى موضع المدينة الفينيقية هيبوديرّتوس التى أصبحت من ممتلكات قرطاجنة واستولى عليها الرومان بعد ذلك وجعلوا منها مستعمرة يحكمها اغسطس . وخربها القوط ثم سلبها معاوية بن حديج عام ٤١هـ الموافق ٦٦١–٦٦٢م ، واستعادها الروم وظلت فى حوزتهم أمدا وجيزا ثم استولى عليها آخر الأمر حسان بن النعمان وقت أن استولى على قرطاجنة . وذكر ابن حوقل فى القرن الثالث الهجرى أنها قصبة الكورة البحرية سطفورة ، وإن كان الناس قد هجروها وقت ذاك فأصبحت خرابا بلقعا . وأفاقت المدينة من كبوتها ، فكانت أيام البكرى محاطة بسور من الحجر وفيها مسجد جامع وأسواق ، وتروج فيها تجارة الأسماك . وكانت تشرف على المدينة قلعة يحتمى الأهلون

فيها من غارات الروم وينزوى فيها الذين يقفون حياتهم على العبادة . وكان بها فى ذلك الوقت مرسى يعرف بمرسى القبة . وروى الإدريسى أن بنزرت مدينة نافقة التجارة وكثيراً ما روعتها الفتن والغارات التى اجتاحت بلاد تونس . وأوقعتها الغزوة الهلالية فى يد أفاق عربى يدعى الورد اللخمى فاستقل بها . ودانت لعبد المؤمن عام ١١٦٠م وغزاها يحيى بن غانية المرابطى فيما بين عامى ١٢٠٢ — ١٢٠٣م . ثم ركدت أحوالها إلى القرن السادس عشر على الرغم من وفود العرب من الأندلس وبناء ضاحيتهم فيها . وقد وصفها الحسن بن محمد الوزان الزياتى بأنها بليدة أهلها فقراء مساكين .

وكثر القرصان فى هذا الثغر إبان القرن الخامس واستفحل أمرهم حتى رأت الدول المسيحية أن تعمل على الوقوف فى وجههم. فظهرت حملة فرنسية جنوية بقيادة كبير أساقفة سالرنو أمام بنزرت عام ١٥١٦ م ، ولكنها عجزت عن الاستيلاء على المدينة . وأراد أهل بنزرت الانتقام فما إن أصبح خير الدين سيد تونس عام ١٥٣٤ م حتى نفضوا عنهم سلطان بنى حفص وخضعوا له . بيد أن شارل الخامس استولى على بنزرت فى العام التالى بعد استيلائه على تونس ووضع حامية بها ، ثم عمد تواً إلى تخريب حصونها ، فأعاد الأسبان بناءها بعد ذلك ، وشيدوا قلعة أخرى سموها « قلعة أسبانيا » ، لا تزال موجودة إلى اليوم . وانتهى الحكم الأسبانى للمدينة عام ١٥٧٢ م باحتلال الترك لها . وكانت بنزرت من أقبح معاقل قرصان البربر صيتاً ، فكم نهبوا شواطىء صقلية وإيطاليا وهاجموا سفن

الدول النصرانية الكبرى على الرغم من مراكب فرسان مالطه . وكان فى معتقل بنزرت عشرون ألف أسير من النصارى .

وقد عقدت فرنسا فى نهاية القرن السابع عشر العزم على امتشاق الحسام بعد أن فشلت مفاوضاتها معهم ، فضرب دوكوش المدينة بالقنابل عام ١٦٨١ ، وعام ١٦٨٤ م . ولم يجد الفرنسيون كذلك بدا من ضرب المدينة ثانية بالقنابل فى القرن الثامن عشر ، فتم ذلك على يد عمارة بحرية فرنسية يقودها أمير البحر ده بوفيز فى اليومين الرابع والخامس من يوليه عام ١٧٧٠ م ، ثم على يد أمير البحر البندقى ايمو الذى كاد أن يخرب المدينة تخريباً تاماً عام ١٧٨٥ م . وأخذت بنزرت تضمحل فى القرن التاسع عشر بإخضاع القراصنة وامتلاء الثغر بالبطائح .

ولما احتل الفرنسيون بنزرت فى أول مايو سنة ١٨٨١م عند بداية الحملة على بلاد تونس وجدوها بليدة خيم عليها البلى تخترقها دروب مليئة بالرمال .

وتغيرت معالمها وأصلح الكثير من شئونها منذ بسطت الحماية الفرنسية على البلاد . فامتلأ جزء من القناة القديمة بالماء وحفرت قناة أخرى بين البحر والبحيرة تسمح للسفن الكبيرة بالسير فيها ، وشيدت فيها ميناء صالحة ممتدة فى البحر ، وقامت العمائر على شواطىء البحيرة و بنيت دار للصنعة فى سيدى عبد الله على مسيرة عشرة أميال من البحر . وأسست حصون على المرتفعات المحيطة بها لتذود عنها عادية المعتدين . ثم بنيت آخر الأمر مدينة جديدة بين المدينة القديمة والقناة سرعان ما ازدهرت ، وإن لم تحقق بعد الآمال المعقودة عليها فى زيادة سكانها ورواج تجارتها .

سفاقس

سفاقس أو سفاقص مدينة فى تونس على الشاطىء الشرقى جنوبى خليج قابس ، فى مكان بلدة تبرورة القديمة . وأنشئت المدينة على مسطح من الأرض ، وكانت خطتها منظمة إلى حد بعيد . وقد نشأ بجوارها ربض أوربى وهى مستطيلة الشكل ، تتقاطع شوارعها تقاطعاً عمودياً . وبنى فى وسطها المسجد الكبير حوالى سنة ٢٧٥ هـ وأعيد بناؤه فى نهاية القرن العاشر وأصلح بعد ذلك مراراً .

وقد بنى أيام الأغالبة سور من الطين والآجر ، ثم رمم ما تصدع منه بالحجر ويقول البكرى إنه بنى بالحجر والآجر معاً ، وكان ينفق على إصلاحه الأمراء والمحسنون . واكتنف هذا السور أبراج مربعة ويصفه التجانى بأنه حائط مزدوج .

وكانت سفاقس فى إبان الفوضى التى أعقبت الغزوة الهلالية حاضرة إمارة صغيرة مستقلة تحت حماية العرب ، وقد استولى عليها روجر الصقلى سنة ١١٤٨ م ، ثم استعادها عبد المؤمن بعد إحدى عشرة سنة ففقدت بذلك شيئاً كبيراً من عظمتها الغابرة . وكثيراً ما كان العرب يتلفون ما يحيط بالمدينة من مزارع .

وكانت سفاقس قبل الغزو مركزاً اقتصاديا له شأنه ، وكانت إحدى

المناطق الهامة لزراعة الزيتون ، وكانت سفن المسلمين والنصارى تحمل منها الزيت و بخاصة إلى إيطاليا . وفى القرن العاشر أسس أهل بيزة فندقا بها ، وكذلك اشتهرت سفاقس بصناعة النسج ، وكان صيد السمك وسيلة هامة من وسائل الرزق لأهلها .

وفى عام ١٨٨١ م كانت سفاقس أحد المعاقل القليلة التى قاومت الاحتلال الفرنسى فسارت إليها قوة لضربها بالمدافع . وأخذت المدينة بعد ذلك تتمتع برخاء جديد ، ويسكن المدينة خمسة وسبعون ألف نسمة ، ويصدر منها الأسفنج الذى يستخرج من خليج قابس و يحيط بها نطاقان من الحدائق وأحراج من الزيتون تشغل ثلاثين ميلا مربعاً و يزرع الزيتون فيها بوسائل تقدمت إبان القرن التاسع عشر .



واحة قابس

قابس

قابس حاضرة ناحية أرَد ، على خط عرض ٥٨″ ٥٢′ ٣٣° شمالا ، وخط طول ٦″ ٤′ ٦° شرقاً . وتبعد ثمانين ميلا جنوبى سفاقس ومائتين وخمسين ميلا جنوبى مدينة تونس ، وهى على الشاطىء الغربى لخليج قابس بجوار برزخ صخرى يفصل البحر عن شط الفِجج . وقابس ثلاث منازل : المدينة ، وربض أوربى ، ثم قرى جره وشنين ومنزل . والربض الأوربى على الضفة اليمنى لنهر قابس يبعد عن البحر نصف ميل . ومصب النهر ميناء يصلح لرسو السفن الصغيرة . أما الكبيرة فترسو فى البحر بميناء غير أمين ضحل فى مواضع ، يعلو فيه المد تسع أقدام . والنقل فى الميناء قليل ، فقلما تربو الصادرات والورادات على ٢٥ ألف طن ، وتترامى أحياء الوطنيين على طول نهر قابس ، الذى يعلو ثمانية أميال فوق مستوى البحر ، ويسقى واحة جميلة شتان بين خضرتها اليانعة والجدب الغالب على ما جاورها . وهناك حدائق واسعة فيها مائة وثلاثون ألف نخلة ، ومائتا ألف شجرة ، ومساحتها سبعة آلاف فدان ، منها ثلاثة آلاف يرويها النهر . ويوزع الماء عليها بوسائل آلية بعضها قديم و بعضها حديث . ونخيلها بالغ الجودة . أما ثمره فليس بشىء ، وتطيب فيها أشجار الفاكهة . فكانت واحة قابس تعجب

الناظرين . ويصفها الشيخ التجانى فى القرن التاسع عشر بأنها دمشق الصغرى وجنة الله فى أرضه . ولكن سكنى الواحة غير صحى ، لذلك بنيت مساكن الناس خارج الحدائق فلا يقيم بها إلا بعض الزنوج . ووراء أحراج النخيل بقاع صحراوية قد تصلحها وسائل الرى . وقابس مدينة بحرية صحراوية بمظهرها وموقعها الجغرافى . وقديماً كان فى موضع قابس مدينة تكاب التى أسسها الفينيقيون ، ثم انتقلت إلى أهل قرطاجنة ، ثم إلى الرومان ، وقد استعملت أطلالها فى بناء مدينة قابس. ولا يعلم كيف آلت المدينة إلى العرب . ولما غلب الفاطميون على إفريقية ، ولى عليها نعمان الكتامى ، وظل أحفاده يحكمونها إلى زمن البكرى . وقد ازدهرت قابس أيام الفاطمية والزيرية ، وأشاد ابن حوقل بخصب واحتها ، وجودة حريرها وصوفها ، ورواج تجارتها وكثرة التجار الوافدين عليها . وأضاف البكرى أن المدينة كانت محاطة بسور من عظيم الصخر ، وبها مسجد فخم ، وفنادق وأسواق .

وكان سكانها خليطاً من العرب والأفاريق ، ونزلت أرباض المدينة قبائل مختلفة من البربر ، غلاظ أجلاف ، تمسكوا بمذهب الإباضية ، وهم فى نظر ابن حوقل ، قوم أشرار خالطت دينهم شوائب من الزندقة . وجاءت غزوة الهلالية إلى قابس وما جاورها بدم عربى جديد . ويروى ابن خلدون أن الخليفة المستنصر وهب قابس قبيلة زغبة عند ما سير الهلالية لقتال

السلطان الزيرى . ومهما يكن من أمر هذه الرواية فإنها تدل على أن قبيلة زغبة استقرت فى قابس بعد أن هزمت المعز الزيرى على نجد حيدران ، بمعاونة رياح وعدى وجُشم . وأنشأ أبو جامع أحد أمرائهم دويلة هناك ظلت مستقلة إلى منتصف القرن الثانى عشر ، ولما احتل أسطول صقلية مدينة المهدية ، دانت قابس لملك صقلية ، حتى غلب عليها عبد المؤمن فنفى آخر أمراء بنى جامع إلى مراكش .

ولقى الموحدون عناء فى بسط سلطانهم على قابس ، فقد حاول أهلها منذ أواخر القرن الثانى عشر رفع نير الموحدين ، ونصروا بنى غانية على خلفاء عبد المؤمن ، فدانت المدينة لعلى بن غانية وحليفه قرقوش ثم استعادها المنصور خليفة الموحدين عندما هزم هذا المغامر وحليفه عند الحمة . وسرعان ما أعاد فتحها قرقوش ، ثم طرد منها مرة أخرى ، ولكن يحيى بن غانية ثبت قدمه فيها ، ولم تعد إلى الموحدين إلا عام ٦٠١ هـ على يد الخليفة الناصر ، وعلى الرغم من هذا كله لم تخلص لهم نيات أهل قابس . وكانوا كذلك فى القرنين الثالث والرابع عشر ينزعون إلى الاستقلال عن الحفصيين ، فخرج أمراؤها من بنى مكى على سلطان تونس ، ولم يكد الحفصيون يبسطون نفوذهم عليها حتى عاود أهلها الثورة إثر غارات المرينيــة على إفريقية ، وأيقظ الفتنة من جديد ، سنتى ١٣٧٩ ، ١٣٨٧ ، رجل من بنى مكى

يدعى عبد الوهاب . وأراد أبو العباس أن يضع حداً لهذه الفتن فاجتاح الواحة واجتث نخيلها ، وما انقضى قرن من الزمن حتى ثارت فتنة أخرى دلت على ما فطر عليه السكان من شغب .

ويظهر أن غزوة الهلالية لم تحدث فى قابس ما أحدثته فى سائر البلاد ، فقد وصفها الإدريسى حينذاك بأنها مدينة ذات شأن تكثر السلع فى أسواقها ، وظلت تجارة البحر نافقة طوال القرون الوسطى ، فاجتذبت التجار إليها من جميع أنحاء العالم الإسلامى ، وكثيرين من النصارى ، كما سمح لأهل بيزا بالاتجار فيها ، وكان قبر الصحابى أبو لبابه الأنصارى ، مزاراً يكثر قاصدوه . وقد نلحظ من وصف التجانى لها أن بوادر الانحطاط ظهرت عليها منذ أوائل القرن الرابع عشر ، إذ خربت مبانيها كقصر العروسين الذى بناه رشيد بن جامع فى القصبة ، وهدمت المنارة التى ذكرها البكرى .

وساءت أحوالها فى القرن السادس عشر ولم تكن أحسن حظاً فى أيام الترك ، وإن بقى ثغرها يصدر ما تأتى به القوافل من تجارة السودان . واحتل الفرنسيون قابس عام ١٨٨١ ، وظهرت بوادر الفتن فى جنوبى تونس بعد انتهاء معاهدة قصر سعيد .

ولما ضربت سفاقس بالمدافع سيرت جيوش الفرنسيين إلى قابس ،

فقاتلهم أهلها ، وسلمت جره ومنزل فى ٢٣ يوليو ، بلا مقاومة . وعسكر الفرنسيون فى رأس الوادى ليتحكموا فى النهر الذى تعتمد الواحة عليه ، فلما استتب السلام ، نشأت مدينة أوربية بين الواحة والبحر ، ومنذ ذلك الحين صارت قابس مقراً للقيادة العسكرية لمنطقة تونس الجنوبية ، ومركزاً للادارة المدنية . وفشلت الجهود التى بذلت لاسترجاع مكانتها الاقتصادية بإعادة القوافل إليها بعد أن انتقلت إلى طرابلس منذ الاحتلال الفرنسى .



واحة توزر

توزر

مدينة فى جنوبى تونس على مسيرة مائتين وثلاثين ميلا إلى جنوب الجنوب الغربى من مدينة تونس، وعلى مسيرة مائة وعشرين ميلا غربى قابس، وهى على خط عرض ٤٨″ ٥٤′ ٣٣° شمالاً وعلى خط طول ٨′ ٨° شرق جرينتش.

وتوزر أهم موضع بالجريد وهى على المضيق الذى يفصل بين شط الغرس فى الشمال وشط الجريد فى الجنوب، وهى وتلاصق هذا الشط. وهى مدينة وقرى متناثرة فى الواحات الممتدة جنوباً على مساحة مقدارها أربعة أميال مربعة. ومبانى المدينة فى نظام رتيب، وغالب البيوت مبنية من الآجر المصفف على أشكال هندسية. أما المساكن فى الواحات فهى أكواخ مبنية من جذوع الأشجار وسعف النخيل، والأهالى يصنعون البسط والأغطية من الصوف والحرير، بيد أنهم يعتمدون فى معاشهم على بساتينهم وأحراج نخيلهم. ويعود الفضل فى خصوبة الواحات، وهى أغنى بقاع الجريد، إلى كثير من العيون البالغ عددها أربعاً وتسعين ومائة عين، تتفجر غربى كثبان الرمال ثم تتحد فتؤلف جدولاً ينحدر نحو الشط. وتوزع المياه للرى بوسائل وصفها البكرى فى مصنفه «مسالك الأبصار» ولا تزال هذه الوسائل تستعمل إلى اليوم. ويخرج من أشجار النخيل التى يبلغ عددها

حوالى ٢٢٨ ألف نخلة ، تمر مختلف أنواعه ، وبخاصة النوع المعروف بـ « دقلت نور » . وقد زاد قدر ما تصدره توزر زيادة ملحوظة بعد ما وصلتها سكة الحديد بسفاقس وبقية بلاد المملكة . والسكان بربر مستعربة ، وعدد سكان توزر نفسها ١١٫٠٥٦ نسمة منهم ١٠٫٧٢٣ مسلمون ، ١٨١ يهودياً و ١٥٢ من الأوربيين وذلك وفق إحصاء ١٩٢٦ .

وتوزر مدينة عتيقة . وأنشأ الرومان بالقرب من موضع بلدة الحدر مدينة وأرباضا لا تزال أطلالها تشاهد إلى الآن ومنها قاعدة مئذنة المسجد وبئر وآثار أعمدة وبقايا قصور ... الخ ثم احتلها الوندال واستعادها الروم . وليس من شك أن الفاتحين الأول من العرب قد نهبوها ثم سقطت فى يدهم آخر الأمر فى نهاية القرن السابع الميلادى . وكان على أهل المدينة أن يختاروا بين اثنتين ، إما الإسلام وإما الجلاء . ولعل الذين نزحوا عن المدينة كانوا قلة لأن التجانى يرى أن أهل توزر من نسل الروم الذين كانوا فى إفريقية عندما فتحها المسلمون .

ويظهر أن توزر كانت فى القرون التالية فى رخاء عظيم . ويتفق ابن حوقل ، الذى يطلق على هذا الإقليم اسم قسطيلية ، والبكرى ، والادريسى فى ذكر عظم تجارتها وكثرة نخيلها . ويذهب البكرى إلى أن ألف حمل من التمر يخرج منها كل يوم .

ولم يخل تاريخ توزر من الحوادث الجسام ، فقد خضع أهلها بالاسم لجميع الدول التى حكمت إفريقية ولـكنهم جاهدوا فى المحافظة على استقلالهم

وظهرت عداوتهم للفاطميين من مناصرتهم للثائر أبى زيد . وفى أيام بنى زيرى حكمهم أمراؤهم من آل فرخان ثم من بنى وطاس . وقد نهب على بن غانية مدينتهم فى عهد الموحدين ، ثم استعادها الخليفة أبو يوسف وتخلصوا من حكم بنى جعفر فى نهاية القرن الثامن واعترفوا فى القرن الرابع عشر بإمارة ابن يملول . وقد تعذر على السلطان أبى العباس التخلص منه عام ١٣٧٩م. وقد امتازوا فى عهد خلفائه بالعصيان ، وكثيراً ما أجبروا أمراء تونس على امتشاق الحسام لردهم إلى طاعتهم . واختل أمن المدينة بما كان ينشب بين الأهلين وقبائل العرب المجاورة من قتال . ولم يتغير حالها فى العهد التركى إلا قليلا ، ففى القرنين السابع عشر والثامن عشر اشترك أهل توزر فى عدة فتن . وكان البايات يلاقون مشقة كبيرة فى جباية الضرائب . وزادت منازعات « الصف » فى تعكير الأمن . وفى القرن التاسع عشر اقتتل اثنان من هؤلاء الصف هما أولاد هدل والزبدة واحتل كل منهما حياً من المدينة واستعرت الحرب بينهما حتى نشر الاحتلال الفرنسى عام ١٨٨٢ م الأمن والطمأنينة فى ربوعها .

١٩٤٣/٩/١/١١٤٠